الفصل السادس:

بعض يوم: ــ

نعود للدرعية حيث استمر الجد مع بقية الإخوة مستكينين، يسمعون رماية متقطعة من داخل وخارج السور، وينتظرون إشارة من عم الإمام أو إبن عمه لمقارعة العدو، طمعاً في النصر أو الشهادة والفوز برضا الرحمن. في المساء يتسامر بعضهم رغم ما هم فيه من غم وكدر، وذات ليلة قال أحد الحراقى أنه سئم الانتظار بدون جدوى، ويريد من يصاحبه للعودة لبلدته وعياله، وقال زميل لهم أن معظم أهل الحريق الذين مع العفيصان، قد غادروا العاصمة عائدين لقريتهم الآمنة عند التلال المنيعة. تحدث رفيق لهم أن القوم قد يأسوا من الحال، فمنذ خمس سنوات بداء الإمام سعود ثم عياله ينكسرون، ففقدوا المدينة ثم مكة ثم الطائف وعسير، وبعدها سقطت في يد الروم القصيم والوشم، وهاهم الآن يكسرون أسوار الدرعية ويدخلونها، فماذا تنتظرون بعد هذا ممن تعدوا على كرامتكم وأموالكم ودمائكم، ولم يحسنوا سياسة الأمور لذا لن يحصدوا سوى الخيبة. غضب الجد من ذلك بشدة واحتد عليهم، ووصمهم بالذل والهوان والصغار، ثم توعدهم بالويل إن عادوا لذلك الحديث، في صبيحة اليوم التالي لم يجد أحد منهم في المعسكر، وعلم أنهم جمعوا متاعهم وغادر كل منهم إلى قريته، كان تدمير أجزاء من حائط حماية الدرعية، وبدء تسلل أفواج من عساكر العدو للداخل، ذو أثر قوي في هبوط نزعة النضال لدى أهل السنة. يوجد أعلى مخيم الجد موقع به عدد غير قليل من المجاهدين، يرأسهم ثلاثة من أبناء الإمام سعود، وقد ألح عليه بعض الرفاق للتوجه نحوهم واستطلاع ما لديهم من أنباء، وهناك عرفوا أن أحدهم هو من فرقة الضفة اليسرى للوادي، وقد كان من المحبوسين في بيت الغياض، لأنه خالف أبيه في الرأي قبل سنوات، وبقي في الحجز لحين وفاته. كان الرجل شاب في منتصف العشرينات، تدور عيناه في ارتباك، ويمد لسانه بين آونة وأخرى ليرطب شفتيه الجافتين، ويتحدث بعبارات مترددة ومتلعثمة، أما أخويه فتبدو عليهما الحدة والغضب، لإبقائهم خارج سور العاصمة. وفهم الجد أن انهيار البرج الشمالي قد أدخل الذعر في قلوب المقاتلين مع العفيصان، فهرب كثير منهم نحو سدير وبعضهم لليمامة، كما أن قلة منهم توجهوا للعِلب، وسلموا ضباط الباشا سلاحهم القليل الضعيف، وأبدوا رغبتهم الانضمام تحت لوائه، لكنهم لم يقبلوا ذلك منهم، بل أخذوا يستخبرون منهم عن خبايا القيادة، ويستحصلون على معلومات وأنباء عن خطوط الدفاع داخل الدرعية، ثم أمروهم بالانصراف إلى بلداتهم. كان الجد يخمن أن سبب توقف القتال هو نقص العتاد لدى الطرفين، وظن أن الأمراء لديهم معرفة بما يزمع عليه الإمام في الطريف، وأخوه فيصل في سمحة، لكنه اكتشف أن لديهم قلق مثله، لكون الباشا يتلقى

المدد من مصر يومياً، بينما لا يتلقى أبناء الإمام سعود سوى الخذلان المتوالي، وتفرق الأنصار عنهم وعجزهم عن كسب مساندة المخلصين. لاحقاً تلقى صحب الجد دعوة من أحد أعمام الإمام عبدالله (إخوة أبو الشوارب) فتوجه مع حشد من الرفاق نحو مكانه، فوجدوا أمور منظمة وترتيب بديع لحفظ السلاح والذخيرة، وطرق محكمة للتحصين ضد هجمات العدو من بطن الوادي، نحو معسكرهم المرتفع فوق تل صغير، يواجه الحائط الغربي شمالاً، كان في مجلسهم الأمراء عبدالله وعمر و عبدالرحمن أبناء الإمام عبدالعزيز بن محمد بن سعود (أعمام إمام الطريف) ومعهم الأمير تركي بن عبدالله (إبن عم أبو شوارب) وولده فيصل، وجرى الحديث حول أنجع سبل مكافحة القوات التركية التي دخلت من سور الدرعية، وتداولوا بشأن تريث بعض ضباط العدو لحين وصول المزيد من الإمدادات، وما يخططون له من شن هجوم واسع مكثف على التحصينات، بما يضمن لهم سلامة الدخول والخروج، حيث يخشون من وجود أفخاخ وشراك توقع فيهم خسائر فادحة. جرى الكلام في قيام المجاهدين بالتفاف على العدو، والدخول من جهة المباني شمال جب غياض، ثم القضاء على من تسلل إلى سمحة من عساكر البغاة، قال الأمراء للجماعة أنهم أعدوا خطة لذلك وجاءت الموافقة على إجرائها، وبينما هم يتأهبون وردهم بأن يلزموا محلهم. شعروا بالأسى لتضارب الرأي في ذلك الوقت الصعب، فتحدث أحد الجلوس قائلا لو أن التدبير جرى كما هو واجب ما حدث هذا، فأوضح أنه كان في الدرعية قبل أربع سنوات، عندما شارف سعود بن عبدالعزيز على الموت، وكان العلماء والفقهاء وأهل الرأي يرون الانكسارات في الحجاز، وقد اقترحوا أن يذهب ولده عبدالله مع بعض إخوته وأحد أبناء الشيخ محمد غرباً للغزو، وبعد الدفن يبايعون عم الإمام، الأمير عبدالله ابن المؤسس (محمد بن سعود) لأن الوضع لن يحله سوى الصلح، ولن تقبل اسطنبول صلح مع من كان جزء من أعمال أبو الشوارب المسيئة، حيث شارك معه في الأحداث خارج نجد، سواء في الإحساء أو الكوفة أو الحجاز، وهو من دخل مع أبوه المرقد النبوي حين أخذ النفائس، كما أوفده لنبش قبور الصالحين في المدينة، ثم تولى قيادة المسلحين الذين صدوا قافلة حجاج الشام. لذلك رأوا أن الأمير عبدالله بن محمد الذي لم يشارك في ذلك سيكون أقدر على إجراء صلح مع رجال السلطان، ودفع شر الغزاة عن نجد، رد عليه أحد الجالسين بأنه حضر ذلك، وسمع بعض أولاد سعود يتوعدون ويهددون، رغم أنهم عرضوا عليهم أن يكون أحدهم ولي عهد عم أبيه، لكنه رد قائلا ليس للعم عبدالله حق في ذلك قطعياً، إنما الأمر لذرية عبدالعزيز بن محمد، ووبخ أخوه الذي ترجاه ليقبل تولي عم والدهم الإمامة، وهو شيخ كبير يعود الأمر من بعده لنا، ثم رد عليه أن الأمر إذا آل إلى عبدالله وأولاده غدا كالمسمار في الجدار، أما أخونا عبدالله الضعيف فهو كالمسمار في ليفة ننزعه متى شئنا. بدا على الأمراء التمعض مما سمعوه، فقال كبيرهم هذا كلام في غير محله، وهو سبحانه القادر على ما يشاء، ثم نقل الحديث نحو وجوب

الإعداد للدفاع عن داخل الدرعية، وأوصى بوجوب الحذر مما قد يوقع الفرقة بين المجاهدين، أو يدخل في قلوب بعضهم الخور، بخاصة أن كثير من المقاتلين عادوا لديارهم، وبعض القادة أخذوا يعرضون أنفسهم على الباشا ليكونوا في طوعه، وهؤلاء خسروا الدنيا والآخرة فإبن محمد علي القولي غدار مثل أبيه. استحسن الجد تغيير مسار الحديث، فتساءل عما جرى في الهجوم على معسكرهم من أعلى التلال، فقال الأمير عمر بن عبدالعزيز بن محمد، أن تلك عملية التفاف ماكرة قام بها أحد قادة الترك العارفين، يقال له ابن المؤذن وأبوه من الكارهين للحنابلة، متعصب لمذهب الإمام الأعظم أبو حنيفة، وهو رافع أذان الجامع السلطاني، وقد درب عدد من أولاده على المهارات القتالية الحديثة، وأرسلهم لقتال أتباع عبد الوهاب الذين يسميهم أهل الضلال، ويصفهم بأنهم المبغضين للنبي وآل بيته، وشحن قلوب أبنائه بالحقد على أهل نجد المتبعين لدعوة الوهابية، وأمرهم بأن لا يدعوا وسيلة لدحرهم إلا استخدموها، وأن قتلهم من العمل الصالح الذي يرضاه الرب. وقد وله! بقيادة حشد من الترك والأعراب عملوا طيلة تلك الليلة الظلماء في تسلق التلال، وعبروا من أعلى خسيف متجاوزين الحريقة ونزلوا في غبيراء، مستخدمين خيل مغولية مدربة على ذلك وعدد كبير من البغال، وبذلوا جهد عظيم في صمت لجر مدفعين تحت جنح الظلام، ثم لما هبط الشعيب بث إشارة لبقية قواته في بطن الوادي لدخول الحريقة، وشن هجوم مباغت على مخيماتكم بين التلال، واستخدم مدافعه لحصد الفرسان والهجانة، ولما وصله الرفاق تسلق التل بين غبيراء والحريقة وأعمل القتل في المسلمين، وهو شجاع ذو رأي حصيف لا يدخل مكان إلا بعد أن يرسموا له صور دقيقة، تحدد كل المواقع و التحصينات ويشاور الإيطاليين فيما يزمع القيام به.

رأى الجد ذات صباح قافلة من مئات الجمال وبعض البغال والثيران، شمال العلب وبدا أن أكثرها محمل بالسلاح والذخيرة، وبعضها فيه مئونة واحتياجات الجنود، وفي اليوم التالي راعه مشهد حشد ضخم، من عدة كتائب بعضها أروام وأكثرها من العرب، وهي تتجه من العلب نحو سور الدرعية، ثم نصبت المدافع وتحلق الفرسان في بضع مجموعات متكاتفة، بينما اتجه عدد آخر من العمال بمعاولهم نحو الثغرة في السور، لتسريع إزالة الركام والأنقاض وفتح درب تسلكه الدواب والمشاة. أخذ رماة الدرعية في قنص المشتغلين والعسكر، من أعلى البرج الواقع في مقدمة الحائط، على الضفة اليمنى لمنحدر الوادي، أي الركن الشمالي الغربي، لكن سلاحهم قصير المدى لا يكاد يتجاوز مائة خطوة، عندها وردت إشارة من الأمير تركي للتوجه نحو بطن الوادي، للاقتراب من جموع الترك والمصاروة والتعامل معهم عن قرب ودحرهم، وعند الالتحام معهم أصابوهم بشدة، لكنهم بعد قليل قاموا بحركة جريئة ومفاجئة، حيث انقلبت كتيبة ضخمة منهم نحو الميمنة، وبدا أنهم يستهدفون الرابية التي فيها اثنان من

إخوة الإمام. نظراً لخطورة المكان تطوع بعض المجاهدين لملاحقة الروم، ومنعهم من صعود التل الذي يشرف على المنطقة من السور حتى العلب، لكن الأمير تركي بن عبدالله وجههم للصمود في مواقعهم لئلا يلتف عليهم العدو، الذي تمكنت ركائبه من تسلق المرتفع، الواقع في ملتقى أبو حريقة مع الوادي ويستطيع الرماة فيه ضرب مساحة واسعة، رغم صغر وقِدم المدفع الوحيد فيه. أثناء الالتحام الدامي عند الحائط لاحظ الجد توجه فوج من العدو نحو الرابية، لذا وجهه الأمير تركي مع حشد من المجاهدين، لإغاثة الرفاق في الأعلى فسارعوا نحوهم، وعند وصولهم قرب المكان شاهدوا الترك يحاولون تشغيل المدفع بذخيرتهم، وقد ذهب جمع المدافعين عن المعسكر وتشتت شملهم، ففر البعض جنوباً حيث المزيد من قوات الباشا، بينما يحاول آخرون التوجه غرباً أملا في الوصول إلى أسفل الوادي، والالتحاق بجماعتهم في الطريف أو البجيري. التحق مع الجد عدد من المقاتلين في تلك الربوة، وقرروا أن الأسلم العودة مع الحريقة ثم الوادي ومن هناك الاجتماع مع الأمير تركي، لكنهم لما شارفوا نحوهم هالهم مشهد جماعة من الترك تمكنت من جر ثلاثة مدافع بالقرب من أصحابهم، كان أحدها يقذف حمم البارود على الرجال والدواب، واثنان تقذف الكرات الحديدية على البرج المجاور لدكه، عندها قرروا عدم الانضمام للرفاق في مرمى المدفعية، وعوضاً عن ذلك تطوع البعض للقيام بهجوم فدائي على العدو، لم يكن عدد المشغلين كبير وقد فوجئوا بالمجاهدين من خلفهم، مندفعين بسرعة يكبرون ويهللون ويرفعون أصواتهم قائلين "إن الله مع الصابرين" وأذِن سبحانه للفئة القليلة بالثبات، وأدخل الذعر في قلوب البغاة فولوا هاربين. توجه بعض رجال الأمير لجر المدافع غنيمة، لكنه لم ير جدوى ذلك وليس لديهم ذخيرتها، واقترح أحدهم إتلافها فهي لم تصل من مصر للدرعية إلا بمشقة وكلفة باهظة، لذا أمر بعض المماليك الشجعان لإتلافها، بوضع ملح البارود فيها بلا ضغط ثم سد الفم بحجر كبير ودحرجة جمرة صغيرة من أعلى، فانفجرت المؤخرة وتعطلت فتحة الفتيلة. التفت الرجال نحو البرج حينما سمعوا قرقعة بداخله وتعالى الغبار، مع بقاء معظم هيكله قائماً لكن لم يعد هناك رماة في أعلاه، وتبين لاحقاً أن عدد من المقذوفات قد سقطت على السطح وساتره، مما أدى إلى انهيار السقف العلوي وجزء من الدرج الداخلي، مما سبب استشهاد عدد من المسلحين وجرح آخرين. بعد ذاك سمع الجد ضرب الدفوف (طبول) ونفخ في أبواق مثل المزامير (بروجية) وقافلة حاشدة تتجه من العلب نحو البوابة المتهدمة، وفيها بيارق حمراء وأخرى بيضاء بخضرة، فناول منظاره لأحد الرفاق، الذي أفاده أن هذا هو موكب إبراهيم باشا وحرسه ومستشاريه. بدأت رماية متقطعة من داخل البلدة لكنها لم تعرقل سير القافلة الوئيد، لكن بعد اقترابهم من الحائط أخرج رجال الأمير فيصل مدفع صغير، كما وجه الأمير تركي بإطلاق النار على العدو، فاتخذ الجد وضع الانبطاح في إحدى الحفر وأخذ يرمي من بعيد، أما الذين سارعوا بالهجوم

راكبين الخيل والإبل، فقد أصابتهم طلقات رصاص العدو فانهزموا عائدين، ثم توقفت مسيرة رِكاب الباشا للحظات، استدارت بعدها للعودة من حيث أتت بسكينة وهدوء. ظن الكثير أن ذلك علامة جبن الباشا، واعتقد آخرون أنه سيحاول إنزال إصابات أكبر بهم، بعد أن يعيد ترتيب أوضاعه غداً، لكن اليوم التالي لم يشهد أي منازلة فعالة، بل تبادل محدود لإطلاق البنادق ورماية قليلة من المدفعية تجاه البنايات. بعد أيام بدأت عدة كتائب تصطف قرب بطن الوادي، ثم ردفتها قوات أخرى من جهة الشمال، وغدا عددها يفوق الألفين من الفرسان والهجانة والمشاة، خلفهم عشرة مدافع تجرها ثيران قوية، وعدد غفير من البغال تحمل العتاد. خرج معهم بعض رجاجيل الشيوخ، وتحصن البعض خلف السواتر الحجرية، بينما كمن آخرون في الحفر والخنادق، وسارعوا لرمي العدو فردوا بنيران أكثر كثافة وأبعد مدى، لكن مشاتهم كانوا مكشوفين في الباطن، ووقعت فيهم إصابات عديدة بعضها قاتل، لذا لاحظ الجد أن المهاجمين انقسموا إلى ثلاث شعب، الأولى فيها خيالة أشداء اتجهوا نحو الثلم في وسط الحائط والمؤدي إلى سمحة، والثانية فيها مقاتلون يركبون أحصنة مغولية ضخمة غفيرة العدد، توجهت نحوهم مباشرة يتبعها الخيل العربية الرشيقة وراكبو الإبل والمشاة يليهم المدافع، والثالثة خفيفة سريعة هرولت جهة اليمين لتدخل شعيب أبو حريقة، لتنضم مع من سبق أن دخلوه وأحكموا السيطرة على بطنه وتلاله. الفرقة المتجهة نحوهم يقودها ضابط غير عربي، وتمكن الجد من تمييز ملامحه بالمنظار الحديث، عليه بزة زرقاء موشاة بالقصب وعلى صدره معلقات ذهبية، وخمن أنه قد يكون نصراني حيث عليه ما يشبه صليب صغير! أطلقوا نحوهم نيران كثيفة وحاول الجد وإخوانه الرد بالمثل، لكن بنادقهم العتيقة وبارودهم الضعيف لم تكن صنو لما لدى البغاة، ومع ذلك أوقعوا إصابات جسيمة خاصة في الفرسان الذين اقتربوا من الخنادق التي اختبئوا فيها. كان يعاون الجد اثنان من مساعديه، أحدهم على يمينه يتلقى البندقية التي أطلق منها ثم يقوم بحشوها بالبارود، ويناولها للآخر على يساره الذي يكون قد أنهى تركيب الفتيل على البندقية الثالثة، ويعيدها للجد مع شعلة صغيرة من النار الموقدة يساراً بعيداً عن ملح البارود، ويتلقف الثانية من صاحبه ليجهزها للرماية، وهكذا دواليك كان الجد الماهر في التصويب، يعمل بثلاث بنادق في رميات متتالية ضد العدو. استمر الحال على هذا النحو لساعتين، تكبد فيها الطرفان خسائر فادحة، إلا أن العدو كان يتقدم تجاههم ببطء، ولاحظ الجد أنهم يعولون على كسب أرضية قريبة من السور، لينصبوا فيها مدافعهم لذا ركز رماية على الثيران، ثم جاءه في مكمنه أحد الأقارب ينبهه إلى مدفع ضخم يجر عجلاته ثوران، وأشار عليه أن يشتركا في إصابة الثورين في لحظة واحدة، حتى لا تقوم لهما قائمة ويتعطل سير ذلك المدفع الهائل، الذي يرومون استخدامه لهدم المباني سريعاً، فأجابه الجد، بل يكفي أحدهما فيترنح فلا يقدرون على استبداله بسهولة. قبل العصر اشتدت الرماية داخل السور

قرب مزرعة سمحة، وماهي إلا هنيهة إلا وأقبل نحوهم مرسول من الأمير أن عليهم الدخول من الكوة التي عند ركن الحائط، حيث أرسل له إبن أخيه فيصل للتوجه للغياض. انتظروا قليلا ريثما سكنت الرماية مع العدو، وباشروا التقهقر جنوباً نحو الجدار، لكنهم حين وصلوا وجدوا رجال الأمير تركي قد تلقوا ما يناقض ذلك، فقد فرض عليهم البقاء في الخارج، انزعجوا من تلك البلبلة حيث تمكن العدو من احتلال متاريسهم، ثم أحضر بغال قوية وجر خمسة مدافع، تم نصبها في منطقة مستوية حصينة قريبة من السور، كان أضخمها في الوسط على يمينه أصغر منه ثم خلفه قليلا آخر، وعلى يساره مثل ذلك. أخذ ضابط المدفعية يستعمل أدواته لتوجيه القذائف بدقة نحو البناية الحجرية، لم يكن في وسع الجد وصحابته سوى الكمون في ساتر شبه ملاصق للسور، لكن طلقاتهم لا تصل للعدو القريب من الباطن، كما احتل جنود الباشا موقع الجد السابق. بعد قليل باشرت المدافع في إطلاق قذائفها نحو البرج والسور، مما أدى لتساقط الأحجار على رؤوس المدافعين وشج بعضهم، وعندما انكشف الجدار الطيني تحت الحجارة ثار الغبار، ثم تزايد سقوط الشظايا مما دفع الكثير للدخول من الكوة، حيث توجه الأمير تركي أيضاً، وجاء أحد الأقارب يحث الجد ورفاقه للتمترس داخل السور للنجاة من التهلكة، وبعد دقائق من القصف المهول من المدفعية، لاحظوا تصدع المزيد مما تبقى من البرج، وخشي الأمير تركي على نفسه وصحبه مما لا يحمد عقباه. وبينما يتداولون أمرهم جاءهم رسول بطلب التقدم معه نحو الجزء الجنوبي الغربي من مبنى سمحة الواقع وسط النخيل. وسط ذلك الانكسار رأى الجد بعض أبطال الدرعية، يعملون لترميم أجزاء من هيكل البرج جهة الجنوب الشرقي، وعمل منصات يكمن فيها الرماة لمناوشة جنود الباشا، كما حفر آخرون خنادق صغيرة لعرقلة دخول المزيد منهم للبلدة، ومن ثم استخدامها لطرد من يبقى منهم أو استئصاله، في محاولة باسلة لتجاوز ما جرى لهم رغم الخطر. ذهبوا جميعاً مع تركي نحو المكان المحدد لهم، وهالهم ما شاهدوه من جموع غفيرة للعدو معهم مدفعين، يحاصرون الناحية الغربية لسمحة، مما يستحيل معه عليهم اختراق ذلك والنفاذ للجنوب، لذا تطوع أحد مماليك فيصل أن يغامر بدخول سمحة من ميسرتهم، لأخذ الأوامر مباشرة منه. لما جن عليهم الليل وجدوا أنفسهم في حالة مزرية، فليس لديهم معاميل المبيت أو الطعام، وأوشكت ذخيرتهم على النفاد، لذا أوصاهم البعض ببناء سواتر من حجارة المكان وحفر مكامن للدفاع، وقبل منتصف الليل جاءه أحد عماله بشيء يسير من الزاد، ونبهه للخلود لقسط من الراحة فقد لقوا في يومهم ذاك نصبا. سأله "أنى لك هذا؟" فأجابه أنه عاد لموضع دوابهم وأمتعتهم، فوجدها في رباطها لم تمس، وكان بعض عمال إخوة الإمام في الجوار، وعلم منهم أن ابن المؤذن قد داخله الزهو، حيث هو الوحيد من القيادات الذي تمكن من دخول الدرعية، وقد نبه جنوده لعدم الالتفات لأي متروكات أو غنائم، ووعدهم بالغنى من أسلاب البلدة، أما ما هو خارجها فلا

يستحق الاهتمام به، كما أنه وفر للعسكر كافة متطلبات المعيشة والقتال. تساءل الجد عن مكان الركائب فقال أنها في أحد مجاري السيل لا تطالها الأبصار، أوصى أحد الجالسين أن يبقوا هناك حمار نشيط عليه الأمتعة اللازمة، ويستاقوا الركائب والأثقال جنوباً نحو "صفار" ثم يبحثوا عن مستراح قريب من الصحب، جهة المقبرة أو مصلى العيد ومحل العلف ويبقى اثنان فقط عندهم، رد عليه أنه لا يوجد أحد من العدو خارج السور، لكن الجد أمره بالامتثال حيث قد ينقلب الحال بين عشية وضحاها، وينصر الله المجاهدين ويفر البغاة آخذين ما في طريقهم. في شدة النصب والارهاق نام باقي ليلته، حيث لم يكدر عليهم صوت رماية أو حركة, وباشروا في تعزيز السواتر حتى لا يباغتهم العدو، وعند الغداة جلس الكثير مع الأمراء لبحث الأحوال، وتعجب البعض من سكون القذائف، وامتعض آخرون من تصرف القيادة معهم، حيث أصدر الأمير فيصل توجيه لعمه (عبدالله) للتقدم، وبعد ساعة أصدر أمر لابن عم أبيه (تركي) للتراجع من نفس المكان، مما يوحي بالارتباك والتسرع، لكن الأمراء الكبار نفوا ذلك، قائلين أن رؤية الميدان تتغير بين لحظة وأخرى، مما يتطلب تبديل أوضاع المقاتلين، بخاصة أنه في وضع حرج يدافع ضد جيش عرمرم بقوات محدودة. قبل المغرب حاول بعض مشاة الترك التقدم نحوهم، إلا أنهم صدوهم بقوة من خلف المكامن، فنكصوا على أعقابهم خائبين، وكفى الله المؤمنين القتال. عند ثلث الليل عاد العمال قائلين أن الأمتعة والدواب في أمان، جوار عدد غفير من الصحب وتركوا ثلاثة منهم وعاد البقية، وأن المكان مجاور لمزرعة "المغترة" البعيدة فرسخين، لكن الجد قال ربما أنها أقرب وإلا لما عادوا مبكرين. استيقظوا قبل الفجر على دوي مرتفع من الشرق، تبين أنه قصف المدافع المرتكزة أعلى الجرف المطل على زراعة ابن مغيصيب، وقد كان هناك أحد أبطال القيادة السعودية، حيث خرج العفيصان وقواته من مكامنهم وهجموا على عساكر العدو المرابطين في المنحدر، وعلموا لاحقاً أن الاشتباك كان عنيفاً، وتمكنوا من دحرهم ليفروا جهة العلب شمالاً، إلا أنهم عجزوا عن تسلق التل ليتعاملوا مع المدفعجية (طوبجية) الترك، ثم بدا أن تعزيزات من الراجمات قد وصلت لمساندة البغاة، شاهد الجد شدة القصف على برج السور الواقع جنوبا عن المغيصيب، وبعد أكثر من ساعة رأى عمود من الغبار والدخان يشق عنان السماء، ولم يعد يرى البرج بل كومة من الحطام والركام، فخالجته الحسرة وسأل الله أن يلطف بالمسلمين حوله. ثم قرر أن يحاول التسلل نحو شرق سمحة مع بعض الرفاق، عسى أن يتمكنوا من النفاذ لمساندة زملائهم على الضفة اليسرى للوادي، لكنهم بعد مسيرة قصيرة وجدوا فرقة صغيرة من العدو، جالسين لتناول الطعام فتداولوا حول سبل القضاء عليهم، لكنهم أعرضوا عن ذلك حيث بدت على الميمنة فرقة أخرى، ولم يستحسنوا شن هجوم واسع بلا أوامر القيادة، مما قد يعرض الآخرين لمجابهة ليسوا مستعدين لها، أو يكشف مواضع كمون البعض الآخر. قرروا الانحراف يساراً

وبعد مسيرة قصيرة، شاهدوا خيمة للترك ومن ورائها عاين الجد لأول مرة "سمحة" وأنها مزرعة نخل من نوعية طيبة ومعتنى بها، يقع في وسطها منزل حجري كبير من طابقين، بجواره عدة بنايات صغيرة من الطين المجصص. بدا من المستحيل الدوران حولها والوصول للشاطئ الآخر للوادي، لذا قر في خاطرهم وجوب العودة لمكانهم، حيث وجدوا القوم في اضطراب فقد سمع البعض بروجي الباشا يؤذن بمسيره، وجاء آخرون من المرتفع بأنهم رأوه بمنظارهم المقرب (دربيل) يقود أفواج عديدة من جنوده، وقد دخل الدرعية فعلاً يحيط به عدد غفير من ضباطه وعساكره، ومن ناصرهم من أعراب نجد والحجاز، واتجهوا من فورهم نحو سمحة، وحاصروها من واجهتها التي نحو أعلى الوادي. في الصباح جاءهم الكشافة (سبور) المرسلين لاستطلاع الوضع، قائلين إنهم قد شيدوا مخيم مبسط لزعيمهم (إبراهيم باشا) على بعد من الركن الشمالي الشرقي لسمحة، وقد نصبوا المدافع وبنوا متاريس تبعد مائتي خطوة عن متاريس فيصل ابن سعود. قبل الضحى (ساعتين بعد طلوع الشمس) بدأت رماية العدو من الغرب والجنوب، لكن كثافة أشجار النخيل أدت إلى طيش معظمها، أما جماعة ابن سعود فكانت متاريسهم على حافة المزرعة، حيث مواضع الترك مكشوفة أمامهم. وصل إليهم رسول يأمر بأن يتسللوا ليلا عبر نخيل سمحة، ليصلوا للضفة الأخرى من الوادي، ويساندوا فرقة العفيصان في الدفاع ضد الغزاة، الذين بدأوا ينفذون من الثلم الذي حدث في السور، لتفادي إطباق الحصار عليهم من ثلاث جهات. وقيل أن مندوب آخر أرسل إلى إخوة الإمام، يأمرهم بالدخول من مكمنهم على الجهة الشمالية لغبيراء، ثم يتجهوا يساراً للالتقاء مع كتيبة أرسلها فيصل، ويقضوا على عسكر العدو جنوب سمحة، ورأى الأمير تركي أنه بهذا يرمي بهم للمهلكة، حيث عساكر الروم هناك بقيادة ابن رافع أذان الجامع، وهو الخبير العريق في فنون الهجوم والدفاع. أخذ الجد غفوة بعد صلاة العشاء ثم أيقظوه بعد منتصف الليل، وساروا في صمت يخاطرون أن يكشفهم أحد أفراد العدو، قبل أن يصلوا لنخيل سمحة وسلمهم الله، فتركوا المبنى الكبير على يمينهم متوسطين البستان، يتلافون الانحراف يساراً حتى لا يفطن لهم جنود الباشا، وتمكنوا من الخروج من النخل ثم عبور بطن الوادي، حتى التقوا مع رجال العفيصان قبل الفجر. هناك تسلم القيادة الأمير تركي وسمح للجماعة بالراحة حتى طلوع الشمس، حيث جاءهم الحرس بأن العدو يرتب صفوفه من ناحية البوابة الكبرى، لذا سارعوا نحو السواتر وكمنوا خلفها مستعدين لرماية العدو، ولما سمعوا صوت إطلاق الرصاص ثم دوي المدافع جنوباً، أخذوا أهبتهم للدفاع حيث باشر عساكر الباشا أمامهم في الهجوم عليهم، كان معهم مدفع واحد لكنه أصغر من مدافع البغاة الثلاثة، ومع ذلك سدد الله رميهم فأصابوا البغاة بخسائر جمة، كما انطلق بعض رجال العفيصان، وهم في شبه القرفصاء يستترون ببعض الأحجار والأكمات وأمطروا العسكر بنيرانهم، بل أن بعض أشداءهم وصلوا المتارس وثوروا

بنادقهم وفرودهم فيهم، ثم أعملوا فيهم الخناجر طعناً، لكنهم سارعوا بالانسحاب لما رأوا المدد من المكامن المجاورة، وعاد أكثرهم سالمين وبعضهم غنم البنادق الحديثة وذخيرتها. عند الغسق عادوا لمجلس الأمير حيث تبادل الجميع الحديث، مع الأمير والعفيصان وباقي القادة، كما جرى ترتيب أسلوب صد هجمات الترك في الغد، وباشر العمال بعدها في إصلاح السواتر وتدعيمها، وخططوا لإقامة عدد إضافي منها، لتفادي نقاط الضعف، كي لا يتسلل بعض عساكر العدو منها. عند الصباح سمعوا رماية كثيفة كأنها من غرب سمحة، لكن لم ير تركي لزوم مهاجمة عدوهم حيث الأوامر من فيصل للدفاع والصد فقط.

عند الأصيل جاء رسول من فيصل، يأمر ببقاء مائة وخمسين رجلا من الأشداء والقناصة مع تركي و العفيصان، على أن يدخل البقية سمحة ليساندوه في الدفاع عنها، في المساء جلس الجد مع حشد آخر يتسامرون مع القادة، وفي سياق ذلك أشار العفيصان لبعض أسر الحاضرين، وتطرق الأمر لجماعة آل خثلان, حيث قال الأمير أنه تعرف على الجد في ضرمى , حيث كان مع جماعة من العناقر (أصهاره) وأشاد بمواقفهم للدفاع عن البلدة، رغم حشود العدو التي تمكنت في النهاية من الفتك بها, وشرح له العفيصان عن سابق العلاقة مع آل خثلان وسبعان اليمامة والحاير، حينما كان أقاربه يعاونون نسيبهم (زيد بن زامل) أمير منطقة اليمامة قبل خمس وثلاثين سنة، حينما تجمع سبعان المنطقة من الدلم والحاير وحريق نعام، ولقي الزامل مصرعه آنذاك حيث كان مناوئ لحركة التوحيد, وأشاد بما عرفوه عنهم من إخلاص وثبات على العهد. رد عليه الجد بأنهم قد عرفوا عدد كبير من أسر اليمامة, الذين منهم الأراذل والأفاضل أما آل عفيصان فقد كان أكثرهم من الطيبين, وبخاصة بعد أن عاهدوا الدرعية في مطالع الدعوة، وبقي معظمهم على الوفاء والأمانة. وقد أشاد والدي في مجلسه أن انجازات آل عفيصان استمرت مع الدولة السعودية الثانية، ثم في عهد الإمام عبد الرحمن، ولما انبرى أحدهم بالقول أنهم قد انقرضوا في زمن الإمام عبدالله بن فيصل بن تركي، رد عليه بأن ظنه في غير محل حيث رأي رجال منهم في ديوان الفيصل، حينما كان نائباً لوالده في الحجاز نحو عام 1340هـ!

في صباح اليوم التالي جاء لمنزل آل خثلان مندوب الأمير تركي، قائلا أنهم يريدون ثلاثة أشداء لعملية حاسمة، فنهض الكثير لذلك لكن البعض تراجع، حينما قيل أنها مهمة "فداوية" فذهب اثنان ورافقهم الجد، حيث تعرفوا على تفاصيل الأمر. كان هناك عدد من المقاتلين من عدة عشائر، وأوضح الأمير أنه نما إلى علمهم تضجر الباشا من المقام حول سمحة، وأنه في تلك الليلة سيغادر بعد المغرب نحو العلب، للمبيت في مخيمه المريح حيث تتوفر أدوات المسرة والهناء، وأن صحبه لن يتجاوزوا الثلاثين رجلا، اندس من بينهم اثنان من الموالين لنا، وزملائهم سيرافقوننا للإرشاد عن مكان

الباشا وسط الظلام، حيث يباغتهم رجالنا ويغتالونه أثناء المعمعة. شعر الجد بالوجل من تلك الخطة البسيطة، التي لا تثمن احتياطات الباشا وحرصه الدائم على سلامته، وتجنب الوقوع في المكروه. تساءل الجد عن الموعد المحدد لذلك، فجاءه جواب زاده قلقاً بأنه الليلة! كان في المجلس أكثر من خمسين من عدة عشائر، بادر أحد البرقاوية ببيان أنه تعامل مع الباشا في الحجاز، وقبل ذلك مع أخيه طوسون، ولاحظ احطتهما بعدد من الفرنساوية والطليان، وعدم التحرك إلا باحتياطات دقيقة للسلامة، حتى وإن كان الخصم يبعد عنهم مسيرة ساعات، فما بالك وهو يسير هنا داخل أرض عدوه فهل يتساهل هو أو رهطه في الأمر؟ ثم صاح رجل حريقي أنه تعرف على طرق تحرك الأتراك في الرس وشقرا، وكيف يحرصون على سلامتهم، وحذر بعنف من عواقب التهور في منازلة غير مرتبة. بدا الضجر على الأمير لذا بادر شخص مطيري عليه سمات الوقار والجدية، فقال للحضور لقد علمتم أن العمل يحتاج رجال فداوية، يضحون بأنفسهم في سبيل إنقاذ الديار من العدو الغاشم، الذي أهلك عدد غفير من أهلنا، ولا يسعى إلا ليفسد ديننا ويعيدنا لممارسة البدع المنبوذة، فمالي أراكم تدور أعينكم كالذين يساقون إلى الموت وهم ينظرون، وإنما نريد أربعون رجلا يخاطرون بأنفسهم، وأن لهم الجنة يقتلون أو يقتلون، لجعل كلمة الله هي العليا ويدحرون رأس حملة الطواغيت. ثم أكمل حديثه قائلا أنهم قد أعدوا خطة محكمة، فهناك قناص في أعلى نخلة ورفيقه يحمل بيرق خلف الباشا، وعندما نصل نقطة الهجوم نبادر نحن بإطلاق نيراننا، وليس عليكم سوى تغطية مؤخرتنا أثناء الاندفاع، حتى نصل لهدفنا ونقضي عليه في عتمة الغسق حينما يضطرب رفاقه. انتشر الهمس ثم اللغط بين الحضور، قطعه صيحة خمسة من القحاطين بأنهم مسارعين للمشاركة في الهجوم، وسيستدعون عشرة من رفاقهم للمشاركة، ثم هب رجل آخر بأن عدد من جماعته سيفادون بدمائهم للمشاركة في ذلك، وعسى الله أن يجعل فيه دحر للمبتدعة المشركين، وحقن دماء آلاف من أهل التوحيد. تقدم اثنان من كبار أسرة آل خثلان نحو الأمير تركي وقام معهم الجد علي، والتزموا بالمشاركة في ذلك طالبين رضوان الله، لكن شخص في المجلس رفع عقيرته بالسؤال عما إذا كان أبو سعد أو الأمير فيصل على علم بذلك؟ فلم يعره أحد باله وطلب المطيري من المتطوعين التجمع بعد صلاة العصر، لبحث تفاصيل العملية وتجهيز السلاح والذخيرة، وتؤتيب أمور الخروج. بعد الغروب وبينما الجد يسبح ربه ويدعوه سبحانه، لاحظ رجل يهرول نحو المطيري قائد العملية، فصدر توجيهه لكل منهم لاتخاذ الموقع المحدد له، في آخر ضوء الشفق لاحظ توجه قافلة بسيطة من الخيل الرومية الضخمة البطيئة تسير في صمت نحو الشمال، لذا كمن في متراسه ساكناً لا يهمس لجاره، ثم لاحظ الإشارة وهي إشعال المطيري لبيرقه بالغليون، عند ذاك انهمرت طلقات الرصاص من المقدمة نحو وسط القافلة حيث الباشا، أعد الجد ورفيقه سلاحهم لكل من يقترب نحوهم من الخيالة. لكنه

في تلك اللحظة شاهد حامل الراية المشتعلة يسقط من على فرسه، ثم هوى زميله القناص من أعلى النخلة، واتجه أكثر من نصف العدو يساراً نحو رفاق لهم لا أحد يدري من أين جاءوا، أما البقية فانطلق بعضهم للأمام بسرعة، بينما التف خمسة من البقية لليمين متجهين نحو الجد علي، فنهض المطران لرمايتهم لكنهم سقطوا مصابين بوابل نيران الترك، بينما أخذ الجد ورفاقه يطلقون بنادقهم نحوهم وهم جالسون خلف التروس، فلم يبق أحد من العدو على ظهر دابته. كانت كتيبة الباشا بين ضوء الشفق ومتاريسهم لذا شاهدوهم بوضوح، أما الجد والرفاق فكانوا في العتمة، ومع ذلك فقد آثروا السلامة بالكمون في مواقعهم لحين شدة الحلكة، فقد كانت في الجوار جلبة وأصوات غير عربية. بعد ما ينوف على الساعة بدا أن العدو قد أخلى المكان، لذا باشروا في المغادرة مع جرحاهم، ولما سمع المطيري صوت خافت جهة الغرب توجه مع بعض الصحب غرباً، وعادوا بعد قليل معهم اثنان من الصبية المصريين الضعفاء، فضربوهم واستنطقوهم فقالوا إنهم مرسلون من عساكر المؤذن، للبحث عن الجرحى والمتروكات فقط. أمروا كل واحد أن يحمل شعلة ويرفعها أعلى من مستوى رأسه، حتى لا يعرفهم من أرسلهم ويسير خلف كل منهم اثنان من المسلمين يحملون مشاعل مشابهة، وجوارهم عشرة مسلحين يسيرون على نور رفاقهم، واتجهت كل فرقة في ناحية متربصين لأي هجوم من العدو، لكنهم عادوا سالمين مع بعض الأسرى ذوو الإصابات الطفيفة، وبعض الخيل وكثير من السلاح والعتاد.

في الصباح لاحظوا بريبة السكون التام سواء في أعلى الوادي، أو في داخل السور عند سمحة، لكن عند الزوال شاهدوا جموع غفيرة قادمة من العلب نحو سمحة، كان معظم الرجال مشاة وآخرون على الخيل والإبل، ومعهم بغال تجر عربات فيها ما يبدو أنه عتاد وذخيرة وأمتعة، كما شوهدت ثلاثة ثيران تجر مدافع ضخمة محمولة على عجلات مرتفعة، بجوارها رجال أشداء يدفعون العجل حينما تنغرس في التراب أو تعرقلها الحجارة. قبل وصولهم للسور المتهدم انقسمت المسيرة، واتجهت غالبيتها نحو اليمين للغياض عند ابن المؤذن، ودخل الباقون من فتحة الحائط متجهين نحو شمال سمحة حيث الأمير فيصل أخ الإمام، وبدءوا يقطعون الأشجار ويحرقون النخيل، لتسهيل الدرب داخل الدرعية، بينما الجد وجماعته في دهشة لعدم مقاومة أو عرقلة تلك التحركات. عندما أسفر صبح اليوم التالي ارتجت منطقتهم بضجيج رماية المدافع، فهب الجد علي لاستطلاع الأحوال، فراعه مشهد المئات من الفرسان، حاملوا الرايات الحمراء أعلى الجرف الشرقي، فتباحث مع الرفاق حول ترتيب عملية لصدهم والدفاع عن موقعهم، لكنهم رفضوا ذلك حيث لم يقع عليهم هجوم مباشر، لذا أمر كبارهم بالتريث والإعداد لدفع أي رماية ضدهم، والبقاء في مكامنهم لحين ترد إليهم تعليمات القيادة. ولم يرق له البقاء في سكون حتى يدخل عليهم العدو، فتوجه نحو مقر

الأمير تركي والعفيصان، فوجده خالياً إلا من بعض العمال والخدم غير المسلحين، الذين أفادوه بتوجههما جنوباً. كان الحال في المكان يشوبه القلق والبلبلة، خاصة عند اشتداد الرماية من جهة سمحة، إلا أن أكثر ما يقلقه هو الخيالة في الأعلى، الذين استمروا يدورون حول قمة الجرف، يظنهم يتأهبون في انتظار لشرّ ما؟

عند العصر دعوهم لتناول طعام العشى، لكن الجد وجد نفسه لا تستسيغ الأكل، وهو يسمع دوي القصف على رفاقه في الجنوب الغربي، ولما حل الظلام جاء مرسول على عجل، مع أمر بسرعة إخلاء المحل والتسلل في جنح الليل نحو السلماني، الذي تساءل الجد عن كنهه، فقيل له أنه مبنى كبير مشيد من الحجارة المتينة، يحده شرقاً عدد من أبراج الحماية، فيها رجال من أقارب الإمام ومقاتلون من العارض والوشم. تركوا الركائب والمتاع مع الخدم الذين أمروا بالتريث ساعتين قبل المغادرة، واتجه الجد ورفاقه في صمت جنوباً، حذرين من الاصطدام مع جنود الباشا الذين انحدروا من الجرف الشرقي، يزمعون الهجوم على سمحة من جنوبها. استغرقت مسيرتهم الحذرة ما يزيد على ساعتين، ووصلوا في الظلام الدامس إلى حائط مرتفع فجلسوا عنده للاستراحة. لاحظ الجد عند الصباح ضخامة مبنى السلماني، وأنه يقع في مضيق الوادي بعد أن يحدث فيه اعوجاج، وهي منطقة حصينة ضد المشاة القادمين من أعلى الباطن، ورغم أن أرضه مليئة بالحجارة إلا أن به نخل كثير، عذوقها بها بسر صغير لم يعتن به. ذهب البعض لإيجاد مقر لهم، ولما رأوه مجرد حجرتين صغار في البستان رفضوا قبوله، بخاصة أن فيه بقايا دواب وعطن، وقرر أحدهم العودة لبيته في الحريق، فنهره كبير آل خثلان بقوله لقد تركنا أرضنا للجهاد لا نبغي الدعة والراحة، مخاطرين بدمائنا وأموالنا في سبيل الله، فثار لغط وجدال ساهم فيه الجد، واقترح جعل الحجرتين مخزن وأخرى للعمال، وأن يبنوا ساتر لصد العدو أو مجلس ومنامة في غير ذلك. رفض أكثرهم السكن في الوادي لكن الكبير أمره بمباشرة البناء، فتوجه ومعه عدد من المتطوعين والخدم، حيث اجتهدوا بمعاولهم وفؤوسهم لعمل حفرة عمقها ذراع واحد، وحديها الشمالي والجنوبي عشرة أذرع والغربي ستة، وهي على بعد قليل من الباطن شرقاً. ثم أحضروا ما توفر في الجوار من أحجار هذبوها وصفوها مع طين "لِبن" وبنوا حجا من ثلاثة جوانب يبعد عن الحفرة ثلاثة أذرع، يوجد فيها مزاغير للرماية أكثرها من جهة الشمال، ويبلغ علوه قامة ونصف وسقيفته من الأثل والسعف، ووجه الجد باستخدام تراب الحفر لعمل مكعبات من جهة الشمال يقف عليها الرماة، أما من يجلسون القرفصاء للرماية فيكمنون بينهم على الأرض. كان الأمير تركي بن عبدالله خارجاً من السلماني، ولما رأى ذلك الحدث مر عليهم مشيداً بمهارة الاستادية، فقال الجد هؤلاء عمالنا ونحن لا نحسن ذلك، فدعاهم إلى موضعه الذي تبين أنه في الناحية المقابلة لهم من القبلة، يرتفع قليلا عن الحد الجنوبي لشعيب غبيرة،

حيث لاحظوا وجود عدة متاريس حجرية، لكنها أصغر مما بنوا وغير مسقوفة وأحجارها متينة. عند جلوسهم معه في مخيمه نوه لهم عن خطر بقائهم في طرف الوادي، مكشوفين لمدافع العدو وفرسانه، فقال أحدهم إننا نزمع دفع الدواب التي تجر المدافع قبل وصولها لنا، مستعينين بالله وحده ينصر من يشاء. في تجوالهم حول المكان شاهدوا مدفع ضخم ليس في الدرعية ما يعادله، فقيل لهم أنه في معسكر الأمير سعد أكبر أبناء الإمام عبدالله بن سعود، الذي كان موجوداً في قصر والده بالطريف "سلوى" عند توقف القتال. كما لاحظوا من ذلك المكان المرتفع، معسكر ضخم به عدة مدافع صغيرة، وحشد كبير من الجنود معهم عتاد ثقيل، علموا لاحقا أنه موضع تحصينات الأمير فيصل أخ الإمام، والذي يقيم فيه منذ تقهقره من جوانب نخيل سمحة قبل أيام، حيث أبى التوجه للقاء أحد في الطريف، لأنه يعد العدة لهجوم على قوات الباشا إذا حاولت دخول وسط الدرعية. عند المساء تنازع "الربع" حول المبيت، إذ أن إحدى الغرفتين الداخليتين كانت نتنة، لم يقبل النوم فيها حتى الخدم، وتسابق الجميع لإيجاد مكان لهم في الغرفة الجديدة الخارجية، حيث النظافة واعتدال الحرارة فيها، لذا قرر الجد وبعض صحبه النوم في الخلاء رغم البرد وبدأ بناء ساتر آخر. لكن الغالبية أصروا على بناء اثنتين، رغم الشعور بأن الأمير لم يستحسن منزلهم ذاك، وبخاصة أنه أوفد لهم مندوب يدعوهم للغداء في السلماني، حيث سيمر من الوادي فيرى ما أحدثوه. داخل البناية عرفوا أن الضخامة هي في الواجهة فقط، أما الداخل فليس به قاعات واسعة على عادة القصور، بل دهاليز تؤدي إلى حجرات متوسطة القدر, دخل عليهم فيها رهط من الأمراء، كان فيصل بن سعود في مقدمتهم وهو ليس أكبرهم، يتكئ على بندقية طويلة في يساره وخلفه اثنان من المماليك، حيث جلس في صدر المكان وهو يهمس لمن بجواره، ثم تحدث بصوت جهوري عن ما أعده من قوة لصد البغاة، وكيف أن الوادي الضيق لن يسمح للمدافع الضخمة بالتحرك، وأنه أعد الخيل العتاق ومطايا الإبل النجيبة, لمنازلة قوية في بطن الوادي يدحر بها الترك وأعوانهم, فتمتم البعض بالدعاء أن يؤيد الله بنصره عباده المؤمنين. تعارف الجد على اثنين من مجالسيه، أحدهما من المحمل وآخر من جلاجل (سدير) ودعاهما للعشاء فوافقا، أما الأمير تركي فقد أوضح أن لديه ارتباط آخر، وقد عاب عليه بعض قرابته إشغال نفسه بالولائم في ميدان الوغى، وكان لم يتناول من طعام السلماني إلا نزر يسير، حيث كان اللحم من جمل عجوز (هرش). جاء الضيفان ومعهما ستة من جماعتهم، حيث باشروا بنقد صغر حجم متاريسهم، التي شبهوها بجحور الجرابيع، ودعوهم لمشاهدة القلعة التي شيدوها أعلى الجرف، كان أحدهم الأكثر كلاما وحركة في كتفيه وجبهته وشفتيه، واعتذر كبيرهم أنه رجل محب، لكنه يكثر المزاح ويحب البعض رفقته! ثم لمح أن أصهاره من بلدة نعام، رد الجد بأنهم كانوا في التحام مع العدو طيلة الأربعين يوما الماضية، وسُحبوا من أعلى الوادي على عجل، ينتظرون

انحدار جحافل الباشا في أي لحظة، أما من بقي في أعلى الجرف بلا قتال، فمعه الوقت الكافي لإقامة القلاع الحصينة، التي سأل الله أن "ينفع بها ولا يتكِلّهُمْ عليها" ثم دعاهم للجلوس. تساءل رجل عن رأيهم في الأمير فيصل، الذي دخل السلماني يمشي في زهو وخيلاء، وكيف لم يوقر بعض أقاربه الأكبر سناً، ويتحدث بحماسة وفخر لا تليق بما جرى في سمحة. قال "عيار" سدير أن الأمر سيحسم قريباً، بمصالحة مع الباشا ليبقى آل سعود يحكمون العارض فقط، يضمنون سلامة الطرق ويرسلون ثلثي الزكاة لاستانبول، ثم تثور الفتنة بين أبناء أبو الشوارب وأعمامهم، وتذهب تضحياتنا أدراج الرياح، حيث الإمام عبدالله ليس حازماً، والأمير فيصل ليس حسن التدبير وغليظ، وإخوته الكبار لن يرضوا تسنمه القيادة عليهم. كان الجد يسمع همساً بذلك منذ تهدم بعض السور الشمالي، ويرد بغضب على من يخوضون فيه، لكنه قبل أن يتكلم سارع أحد الخثالين بالقول أن هذا حديث في غير زمانه وموضعه، فإن ذرية الإمام سعود وأعمامهم فيهم خير جم للمسلمين، يعملون على نبذ البدع والالتزام بأسس التوحيد التي ألزم الله بها حتى الأنبياء، وهددهم بأن يحبط عمل من أشرك. لذا فنحن على ثقة أنهم مخلصون لحركة الإصلاح، وهم من الذين إن مكنهم الله في الأرض أقاموا الصلاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، كما أنهم لا يخرجون عن رأي الفقهاء وعلى رأسهم الصالحون من ذرية الشيخ محمد، ويحكمون بالشورى الإسلامية. تساءل الرجل عن كنه تلك الشورى؟ فأجابه أنها عدم القطع في أي أمر هام، مثل تحديد الأعمال واختيار الرجال وصرف الأموال، إلا بعد مشاورة أهل الحل والعقد من رؤساء القوم، ومن العلماء الربانيين الذين لا يريدون علواً في الأرض ولا مالاً. لم يدعه السديراوي يكمل، فقاطعه بالقول ألم ترى ماذا جرى بين الأمراء من نزاع قبل سنتين، حينما جرت المصالحة مع طوسون، وشحت الأموال بعد خروج الحجاز والحسا من ولايتهم، وهل نسيت ما جرى قبل سنين من عصيان بعضهم لأبيهم وهو في عنفوان جبروته، ثم ما قام به أبو شوارب بحبس البعض وإيذاء آخرين منهم ومات من مات وهم أبنائه الكبار. فهل يستطيع الإمام الضعيف (أبو سعد) أن يكبح جماح شهوات إخوته الكثيرون؟ أو أن يقتل بعضهم البعض في نزاع على الحكم، كما جرى عندكم في نعام وتذهب أعمالنا هباء منثورا. فسارع أحدهم بالرد عليه أنهم لم يعرفوا ذلك إلا حينما جاءهم السيدراوية، حينها اشمأز الجد علي من طبيعة الجدال الكريه، فنادى على أحد الخدم للإسراع بالطعام، لكن العيار أبى أثناء قيامه إلا أن يلقي كلمة أخرى، فقال إن بغاثنا في أرضكم تسنسرُ! فآثر الكل أن لا يعيروه الانتباه في حضرة الطعام. وعند المغادرة طرح قول آخر، بأن أهل الفرع يماهون سدير حتى في أسماء قراهم، فحوطة نعام سميت على حوطة سدير وكذلك حريقها على حريق سدير ومثله العودة. لكن أحد رفاقه رد بأن ليس عندهم عودة، وحوطتهم أقدم من حوطتنا، وحريقهم أكبر من حُريقنا المُصغر، ثم أضاف كبيرهم بأن هذه ثرثرة فائضة وطروحات بشعة

لا تليق، ثم ألح على آل خثلان لتناول طعام الغداة معهم ضحى اليوم التالي في القلعة. كان الصعود لأعلى الجرف غير يسير على الدواب، حيث صعدوا من جهة القري الذي ترتقيه الركائب بحذر لكثرة الجراويل والصخور فيه. أدخلوهم مجلس كبير في البناية الضخمة، أسندت على حوائطه لفافات من عسيب النخل المرشوش بالماء، والخدم في أيديهم مهاف مما كسر الحر، ولم يحضر العيار ولم يكترث لغيابه أحد. جرى الحديث حول مبنى السلماني، فقال أحدهم أن الشيخ محمد بعد وفاة رفيقه في حركة الإصلاح والتوحيد (الأمير محمد بن سعود) شعر بالشيخوخة وقرر أن يختلي بنفسه بعيداً عن ضوضاء البجيري، لذا قرر الإمام عبد العزيز أن يقام له مكان يستريح فيه ويتفرغ للتلاوة والدراسة، غير بعيد عن قصور الطريف، حيث كان الشيخ يمضي فيه بضعة أيام قبل العودة لمسكنه في البجيري، وبعد وفاته استخدمه بعض أبنائه، وهو كما رأوا ليس مهيأ لاستقبال الوفود، وليست به تحصينات حربية. قبل الفراغ من تناول الطعام سمعوا صوت رماية متقطعة، لم يتبين ما إذا كانت من بطن الوادي أو من الأعلى، فهب الجد ورفاقه نحو رواحلهم، فلما تبين انحدار الجرف القاسي، أمروا العمال للتوجه بها من الجهة الشمالية، بينما انحدروا مترجلين مع سلاحهم الخفيف للنزول الوعر، فوصلوا سريعاً لمكمنهم قرب السلماني. هناك علموا أن بعض عساكر الباشا حاولوا التقدم جنوباً من سمحة، فاعترضتهم تحصينات الأمير فيصل وإخوته وتمكنوا من صدهم، فعادوا أدراجهم نحو قاعدة أقاموها في أحد بساتين النخل شمالا. طيلة الأيام التالية تكررت هجمات العدو واستمرت المقاومة المستميتة من المجاهدين، الذين كبدوهم خسائر فادحة في الأنفس والعتاد، وكان أكثر العبء على قوات الأمير فيصل، التي كمنت على مسافة غير بعيدة من منعطف الوادي، حيث يتمكنون من رماية البغاة فور بروزهم من المنعطف، ويقضون على الدواب التي تجر المدافع الثقيلة، كما يصرعون الخيالة ويطاردون المشاة الذين يتسللون في قعر الوادي، فيغدون بين قتيل أو جريح أو أسير. ثم هدء القتال لأيام قليلة اشتد بعدها الهجوم على أبراج الدفاع أعلى الهضبة الشرقية، حيث توجد جموع من أهل اليمامة والمحمل وسدير، أبلت خير بلاء في صد محاولات العدو للسيطرة على ذلك المرتفع. الذي عندما شعر بالخيبة استنفر أحد قادته الشجعان (دالاتي) ليقود هجوم واسع على أهل التوحيد، لكنه باء بالفشل مثل من سبقه. كانت فرقة الجد في حرزها المنيع بحول الله، وليس لديهم قتال شديد، حيث يقبعون خلف تحصينات فيصل قليلا، ولا يكاد يصل إليهم إلا شارد أو تائه، فيتولى البعض التعامل معه والإجهاز عليه، ما لم يتمكن من الفرار. إلا أنه في أحد الأيام جاءهم خبر أن هجوم شديد يعد له البغاة، فأخذوا الأهبة وتقدموا شمالا بعيداً عن متاريسهم، حيث لاحظوا أن غالبية المهاجمين قد ركزوا ضربهم على قوات فيصل, لكن فرقة من نحو ثمانين شخص على خيل رومية, يردفهم أكثر من مائة من البدو على الهجن, انحرفوا شرقاً متجهين نحوهم بسرعة، انبطح

كثير منهم أرضاً لصد المهاجمين، حيث لاحظ أحد بنو العم أن قائدهم بشناقي، فأوصى الجد أن يرمي فرسه ببندقيته، حتى يتمكن من قتله من على بعد حيث أنه بواردي جيد (قناص) وتم ذلك بالفعل حيث أصاب وجهه بباروده عندما سقط أرضاً، ولما تجمع أعوانه حوله قام رفاق الجد بإطلاق نيرانهم عليهم فولوا هاربين. في المساء تداولوا الأمر وتبين أن الترك عازمون على دخول السلماني، ولن يدخروا جهداً في تحقيق ذلك لغاية في أنفسهم، وطلبوا المدد من قوات الإمام. بعد أيام قليلة اشتدت الرماية من جهة الشاطئ الغربي للوادي، حيث يوجد الأمير سعد ابن الإمام عبدالله، وعلى يمينه (جنوب) ثلاثة من أعمامه، وعلى يساره ابن عم والده (تركي عبدالله) ووصل عند آل خثلان مرسول يخبرهم بأن يتوجهوا قبل الصبح لمساندة تلك المجموعة.

كان الكثير في قلق من العمل تحت قيادة شاب قليل الخبرة حديث السن، لكن الجد سأل الله التوفيق للنصر من عنده، مع هواجس قوية حول نجاح طريقة القيادة والتوجيه لدى الأمير، الذي كان بصدد العمل معه لأول مرة، في وقت حرج لا يسمح بفرصة للتعارف والمفاهمة. لم يجده شخص غرير ولا متهور، بل ظهرت عليه ملامح الرزانة والحكمة، كما أنه يتمتع بذاكرة قوية ولديه معارف واسعة رغم أنه لم يتجاوز العشرين سنة، فقد رحب بالقادمين برقة وحبور، مشيداً بتضحياتهم في سبيل دحر العدو الغاشم. لاحظ الجد حسن ترتيب المعسكر, وتوفر نوعيات جيدة من البنادق ذات الزناد, والمدفعية بعيدة المدى والذخيرة المطورة ذات القدرة الحارقة قليلة الدخان، وتوجه بهم أحد رجال الأمير نحو ساتر حجري أعلى الموقع، تتوجه الرماية منه صوب الغرب, حيث فهموا لاحقاً أن ابن رافع أذان الجامع "المؤذن" جهز حشود غفيرة لمهاجمة بطن وادي حنيفة عن طريق شعيبي غبيره وبليدا، حيث فشلت المحاولات السابقة لاقتحامه من جهة سمحة, وكان المؤذن من أكثر قادة الباشا حماسة للاستيلاء على مواقع حصينة داخل الدرعية, وهو يحظى بثقة تامة من الباشا ومن والده (محمد علي) في مصر. قرر أحد شجعان حريق نعام أن يخرج في سرية، ويتجه غرباً في الهضبة الوعرة حيث معسكر المؤذن (المذن) ليعرف كيفية تعايشه في تلك الفيافي، ورافقهم الجد علي حيث شاهدوا من على بعد تدريبات يقوم بها الخيالة بين الصخور وعبر مجاري السيول، كما كان يدرب البغال والثيران علي السير وهي مثقلة أسفل المنحدرات، حيث ذلك أكثر خطورة من الصعود، كما يقوم بعض ضباطه من نصارى فرنسا وايطاليا، بشرح أفضل سبل الرماية بالبنادق الحديثة، بدون استخدام الذخيرة الحية حتى لا يجلبوا الانتباه. لاحظ الجد كثرة الرجال والسلاح عند العدو، ولم يدهشه ذلك حيث منذ كسر الباشا البوابة الشمالية، أخذ المرجفون يروجون بقرب سقوط الدرعية كلها، لذا بداء بعض ضعاف النفوس بالمغادرة لبلدانهم ومنها الحريق، كما قل أو انعدم وفود المزيد من المتطوعين لسند الإمام، ويقول أحدهم لماذا أركب السفينة

التي على وشك الغرق؟ وفي نفس الوقت كان المدد يأتي للباشا كل يوم من مصر والشام والعراق ومراكش، كما يأتي إليه ضباط وسلاح مطور الصنع، من البوسنة، واليونان، وأرمنيا، واسطنبول. نبه بعض الرفاق أن السواتر المبنية غرباً، تبعد كثيراً عن السفح الذي فيه معسكر المذن، واقترحوا بناء خمسة سواتر في الوسط لإحكام السيطرة على المكان، ولم يعترض عليهم إبن الإمام فباشروا العمل فيها. إلا أنه في صباح اليوم التالي شن البغاة هجوم قوي على السواتر الجديدة، وجرى التحام شديد تمكن المجاهدون فيه من دحر العدو، حيث معظم جنوده لا يحبذون القتال مواجهة مع العرب، بل يرمون من خلف الجدران، ويهاجمون من على ظهور ركائبهم، ماعدا قلة فدائية منهم تسمى "دالاتية" وهم من المغاوير ذوي الحماسة والإقدام. استمر القتال عدة أيام تكبد فيها عسكر الترك خسائر فادحة، مما اضطرهم للسكون في خيامهم أعلى السفح، يتربصون بالمسلمين برماية نارية من سلاحهم البعيد المدى. استأذن الجد من آمر الفرقة أن يتاح له ورهط من جماعته (الخثالين) أن يتدربوا على أحد المدافع التركية التي غنموها من العدو، فوافق على ذلك وأمر أحد رجاله أن يوفر لهم البارود والقطع المعدنية المقذوفة والحصى، ويدربهم على تشغيله وطرق التصويب بدقة.

استمرت مناوشاتهم مع العدو عدة أيام، وهم يسمعون التحام قوات فيصل بن سعود، في بطن الوادي مع عساكر الباشا الذين تولى قيادتهم "وردان أغا" وهو رجل سمعوا عن شدة مراسه وعنفه، وقد اتخذ من سمحة مخيم لقواته. في إحدى الليالي وهم سامرون مع الأمير سعد، قال رجل أن أحد عيونه المندسين مع المذن، قد أشعره أن البغاة يجهزون لهجوم من بطن شعيب غبيرة، ليباغتوا قوات ابن سعود الرابضة في قلب وادي حنيفة من جهة الجنوب، حيث لا توجد تحصينات تصد الهجوم إلا من جهة الشمال. عرض الجد أن يتجه مع طائفة من أسرته ليكمنوا في وسط غبيره، وليدفعوا أي هجوم من أعلى السفح، وينبهوا بقية الرفاق لمساندتهم في وقت مبكر. لكن أعمام الأمير نصحوه بعدم التداخل مع عمليات عمه فيصل، حيث إنه سريع الغضب ويسيء الظن بكل من يحاول معاونته! لذا صرفوا النظر عن ذلك لكن أحدهم تطوع بالذهاب لفيصل، ليأخذ حذره من المقطع الجنوبي لمكمنه. مساء اليوم التالي كان أغبر أقشر، هبت فيه رياح شمالية محملة بالتراب، والسماء بها سحب خفيفة (سدى) مع ظلمة حالكة، حيث القمر في المحاق يظهر مثل الهلال قبل الفجر. وسمع الجد وجماعته أصوات عمال بناء في بطن الوادي، فظنوا أن الأمير فيصل (رئيس المقدمة) قد أخذ النصيحة وهو يشيد متاريس من جنوب، لصد أي هجوم من تلك الجهة على قواته، لكن انبلاج الفجر بين خطاء حدسهم، فقد كان العدو قد بنى تحصينات عند منعطف الوادي، ووضع في اثنان منها مدافع صغيرة. ثم باشروا رماية كثيفة من قرب أنزلت

خسائر فادحة بالمجاهدين، ثم جاء مندوب الأمير تركي يطلب المدد، حيث بدأت قوات كبيرة من جهة المؤذن تنحدر صوب الوادي، فأمر ابن سعود جمع غفير من أهل اليمامة للتوجه لشعيب غبيرة، وحشد آخر من سدير والمحمل وجههم لمنع نزول العدو من شعيب بليدة، بينما كمن في موقعه المرتفع الحصين لمنع جنود المذن من الاستيلاء عليه. دارت معارك شرسة وقتال بالسلاح وبالأيدي والأقدام، وتكبدت كافة الجماعات إصابات جمة، وامتلأت شعاب الوادي بأجساد الرجال بين قتيل وجريح، واستمر التلاحم حتى المغيب، ثم استأنف صباح اليوم التالي حتى العصر. تمكن الجد الجريح وجماعته من صد بعض البغاة، لكن أعدادهم كانت بالألوف وهم مئات قليلة، مع سلاح بسيط وذخيرة ضعيفة، لكنهم استبسلوا في المقاومة حين شاهدوا علامات الضعف في بطن الوادي، كما كان الوطيس حامياً في أعلى الجرف الشرقي، حيث توجهت حشود غفيرة من خيالة الباشا المرابطون أعلى العلب، ويساندهم جمع من القوة الرديفة الكامنة جنوب غرب بنبان منذ نحو شهرين، لكن المجاهدين هناك كانوا لهم بالمرصاد. عند الأصيل ظهر شيء من التقهقر في قوات فيصل بن سعود، وبعدها بقليل حدث ما كان الله قد حكم به، فقد انكسرت الجموع في الوادي وأخذوا ينسحبون جنوباً بغير نظام، مما دفع عساكر وردان للحماس في مطاردتهم وأخذت تفتك بالمشاة، أما الخيالة فقد ابتعدوا عن العدو. قبل المغرب وصل مرسول في هلع من عند فيصل، حيث تمنى على الأمير تركي بن عبدالله سرعة إغاثة الأمير فيصل، فقد حوصر في مكمنه وليس معه سوى خمسين مقاتل، وقوات العدو تريد الفتك بهم أو أسرهم، لذا هرول ومعه نحو مائة من الأشداء لنجدة حفيد عمه. وصلوهم بعد أن أعتم الغسق فشاهدوا جنود العدو يحيطون بالجدار كأنهم سباع مسعورة، لكنهم لا يجرؤون على اقتحامه خوفاً من رماية المسلمين، قرر الأمير تركي التريث قليلا لحين شدة الظلام، ثم أعطى الإشارة لبدء الهجوم عليهم، عندما سمع الجبناء صرخات وطلقات أهل التوحيد، آثروا السلامة والفرار شمالا نحو قادتهم. لم يقبل فيصل مشورة ابن عم أبيه للتوجه نحو قصر "المُريّح" في الطريف، بل قرر الذهاب للسلماني الذي لا يبعد سوى خطوات عن مكمنه السابق، وغير بعيد عن موقع عساكر الباشا في المنعطف. ويلزمني ذكر ما سمعته في المجلس، عن أن سبب تسمية الدرعية "العوجه" أو "عوجاء" هو وجود انكسارات في واديها "حنيفة" لكن أهمها وأوضحها هما الشمالي عند مصب غبيرة، والجنوبي بعد حي الجبيري وقبل المغترة. أعد الخدم طعام مبسط للأمراء ورفاقهم، لكن فيصل وإخوته لم يأكلوا سوى نزر يسير، حيث كانوا مرتجين من هول ما جرى لهم في ذلك اليوم، فقد قيل لهم أن الباشا قد وعد أباه أن يرسل له رؤوس أبناء الإمام سعود، وكان أبوه الباشا الكبير في مصر (محمد علي قولي الألباني) قد وعد السلطان محمود في اسلامبول بذلك، بعد أن لم يقدر على إرسال رأس سعود، الذي عاجلته المنية ومات على فراش ابنته!

في صباح اليوم التالي كان الجد علي وآخرون في صحبة الأمير تركي، الذي تطلع بمنظاره المقرب نحو السلماني حيث فيصل، وطلب من البعض مشاهدة ما رآه على بعد، حيث كان رجال الباشا يشيدون معسكر ضخم، وقال لهم أنه يجزم أن العدو سينقل مقر القيادة من العلب إلى القري، وهو شعيب واسع ذو ميول بسيطة وفيه زراعات موسمية وليس النخيل، وأشار البعض أنهم لن يقبلوا وجود الباشا فيه، وهو على مقربة من السلماني حيث فيصل وإخوته. أرسل تركي تحذيراً لهم لمغادرة المكان، لكن الجواب كان الإصرار على رأيهم السابق، مع التأكيد أنه طلب العون من الإمام، كما نبه المدافعين عن أعلى الجرف لتوجيه رمايتهم نحو أي هجوم ضده، ناسياً أن أخوه (إبراهيم) قد تعرض لهجوم شديد من الترك، مما اضطره للانسحاب جنوباً نحو ناظرة، لذا فليس بوسعه تقديم عون ملموس له. عند الغروب وبينما الجد يضمد جراحه الطفيفة، أقبل نحوه أحد الأقارب يخبره بسقوط السلماني واستيلاء عساكر الباشا عليه، وأن فيصل خرج سالماً وتوجه لمكان غير معلوم، كما سيطر العدو على كل التحصينات في بطن الوادي. في تلك الليلة الظلماء الغبرة، جلس القوم يتسامرون بعد أن هطلت عليهم رشات مطر، أسكنت العجاج ورطبت الهواء، تكاثرت الأقوال عن مصير فيصل ومكانه، فمن قائل أنه قد توجه عند أبو مسمار في عسير، والذي سبق أن كتب للإمام يدعوه للقدوم عندهم، حيث الجبال المنيعة أحصن لهم من وادي الدرعية، الذي تدكه المدافع بسهولة. وقال آخر أنه ربما قد ذهب شرقاً في بوادي الإحساء، حيث قال أحد آل عفيصان بأن هناك أماكن عديدة متباعدة، يمكن أن يلجئوا إليها مما يشتت جهود الباشا في ملاحقتهم، ويشنوا منها غارات للفتك بالعدو وجعل إقامته في وسط جزيرة العرب مضنية. أما رجل مقرب من بعض أبناء سعود، فقد أكد أنه توجه إلى مسقط المنزوية بعيداً عن الموانئ القريبة من مصر، والتي لم تستطع الدولة العثمانية الجبارة أن تجعل لها فيها موطئ قدم خلال القرون الثلاثة الماضية، وأنه سيطلب أن يتوجه نحوه هناك من يرغب في استكمال الجهاد، بخاصة أن أحد قادة الفرق الحربية هناك (ابن رحمة) كان من أعوان الإمام سعود وهو من المحبين لأبنائه.

سمعت في مجلس أبي يرحمه الله مداولات حول خطة التوجه إلى عُمان قبل وأثناء حرب الدرعية، وكان ذلك في النصف الثاني من خمسينات القرن العشرين، شارك فيها بعض أكاديميو التاريخ العرب، وعدد من المبتعثين لدراسة التاريخ في الخارج من طلبة العلم في المملكة. تركزت الأقوال على أن العلاقة بين آل سعود والبوسعيديون، خلال الخمسين سنة السابقة على غزو نجد، كانت تتأرجح بين المهادنة والمشاكسة، فقد توسط الإمام سعود (أبوشوارب) بين أربعة من أمرائهم لحل خلافهم على السلطة، بتقسيم بلادهم لأربع أمارات، مما ظنوا أنه بغرض إضعافهم ثم ضمهم

لدولته، وعندما انشق أحد رجالهم وجد في الدرعية مأوى له؟ إلا أن المعضلة الأساسية كانت في تقيد البوسعيديين بالمذهب الإباضي, وهي إحدى فرق الخوارج, التي لديها تأويلات تختلف جذرياً عن نهج الشيخ ابن عبدالوهاب, رغم أنهم من أقلهم تزمتا, حيث لا يجيزون قتل من لا يواليهم, كما تفعل فرق الحرورية والأزارقة, لكنهم يجيزون قتل أعوان الطغاة, في تأويل لنص آية إغراق فرعون وهامان وقارون وجنودهم، كما كانوا في نزاع مع قواسم الشارقة اتباع الدرعية. قال جالس إن السعوديين خافوا انقلاب آل بوسعيد عليهم, فقد كانوا حلفاء للعثمانيين في حربهم ضد روافض الصفوية الفرس, كما كانوا يرسلون ثلاثة أخماس الزكاة لإسطنبول, ولا يخالفون أوامر الخليفة وولاته في الحجاز والعراق, لكن أحدهم رد عليه بأن أهل عُمان (مُجان قديماً) لم يعرف عنهم الغدر, لكنهم ذوو حيلة وحسن تدبير, فعندما جاءهم أوروبيون قبل الميلاد بقرون يسألون عن مصدر المسك الذي يبيعونه, خافوا من أن يفتحوا طرق تجارة مع الصين والهند, ويفسدوا مصالحهم كوسطاء وناقلون, فقالوا لهم أنهم يجلبونه من صرة بعض ظباء الربع الخالي الموحش, والحق أن المسك يستخرج من ظباء معينة تعيش في سفوح جبال هملايا فقط. ومن المعلوم أن عاصمتهم الحالية (مسقط) كانت تسمى مدينة المسك (مِسكة) لكن الأمر اكتشف في القرن الرابع عشر (م) بعد أن زار ماركو بولو الصين، ونقل معه أسرار الحرير والخزف والمكرونة، وبدأت التجارة المباشرة مع بلد الأعاجيب، واضمحلت مكانة أبو ظبي ودبا (ليست دبي) التي كانت تتبع الرستاق. آنذاك سألت أحد العمال عن أهل عُمان الذين لم يسبق لي أن رأيت أحدهم، وكنت أخلط بين اسمهم وعمان الأردنية، فأشار إلى قوم يعملون في الطريق، على رؤوسهم طرابيش من قش وملابسهم رثة، لكن والدي قال إن "صنيج" جاهل فأولئك من ظفار أو لحج؟ وليسوا عمانيون. منذ حينها وأنا شغف بتلك البلاد العظيمة، لكني لم أتشرف بزيارتها حتى عام 1978 م حينما عهد إلى للمشاركة في إعداد تقرير عن التنمية الصناعية فيها، وذلك لدراسة يقوم بها مركز التنمية الصناعية التابع للجامعة العربية في القاهرة، وهناك شاهدت مظاهر طيبة للنهضة بعد التحرر من السيطرة البريطانية، والتقيت مع رجال من أهل الشيم الكريمة والمناقب الحميدة، كان بينهم معالي الدكتور يوسف نعمة الله الذي كان مدرسي في الجامعة، ويعمل مستشار اقتصادي معهم. لكن بعد الثورة الخمينية الكريهة، ثم تأسيس مجلس التعاون الخليجي في الرياض، عملت مع بعض السادة العمانيون في مشاريع للنهضة الصناعية الخليجية، ولاحظت شيء من الانقباض لدى بعضهم، ولا أنسى أحد فضلائهم الكبير في العمر وضعيف البصر، الذي يعمل ما في وسعه للدخول في جدال وملاحظات لا طائل من ورائها، وتؤدي فقط لعرقلة العمل وتأخير البت في القرارات، ومعظم البقية متعاونين ومتسامحين في الجوانب الشخصية. ثم تكررت تلك الحالة أثناء العمل المشترك، في منظمة الخليج الصناعية (الدوحة) التي تشارك فيها

العراق آنذاك، كما يلاحظ الكثيرون أنه في كل خلاف للمملكة مع إحدى الدول، تختار السلطنة مواقف الطرف الآخر، أو مجرد تظاهر مكشوف بالحياد، وهو أمر غير ملائم بين الأشقاء أو حتى الجيران. ولم أفهم حتى يومنا هذا سبب عزوف سلطان عمان، عن المشاركة في لقاءات قادة دول الخليج العربي، رغم وقفتهم الملموسة معه أثناء اضطراباته الداخلية قبل سنوات (2011م) وحتى الآن. إن مشكلة واحة البريمي كانت (1955م) بين السعودية والكيان المحتل (بريطانيا) التي تأبى إلا إيقاع الدسائس بين الإخوة، وقد سمعت في مجلس المرحوم، أن الملك فيصل عرض تسوية الخلاف بشكل يشابه ما جرى مع أبوظبي، حيث تتنازل المملكة عن 200كم أراضي فيها بترول مقابل 50كم من الساحل بين السلطنة وحضرموت، مما يتيح فوائد جمة للطرفين وبعد عن النزاع، لكن الإصرار على أمور معقدة لم يحل القضية بالحسنى**!** وللحقيقة تجب الإشارة أن نهج عُمان كان على الأغلب يتسم بالنبل والحشمة، فلم يركنوا للأساليب البذيئة في التعبير، ولم يستأجروا أبواق السباب الرذيلة للتهجم على المملكة، كما فعل بعض من في مصر والشام والعراق واليمن أو الخليج، حينما يخزهم إبليس للتعرض بالسوء لمن أحسن إليهم. وليعلم الأحبة الذين سطرت لهم هذه السيرة، أن سبب استرسالي في إيضاح هذه المسألة، هو كثرة الأسئلة في المجلس عن سبب لجوء أبناء سعود لذلك الأخدود في وادي حنيفة (الدرعية) والتعرض للقصف المكثف من مدفعية العدو، وعدم نشر أنفسهم في فيافي جزيرة العرب الموالية لهم، ثم ينهكوا العدو بهجمات خاطفة في أماكن يجهل طبيعتها. لقد كان يرحمه الله يتفادى النقاش حول ذلك، ويكتفي بتعبير عام مثل "كان أمر الله قدراً مقدورا" وفي ذات مرة استفزه رجلان أحدهما من عتبان الحجاز (برقا) وآخر من أشراف بكة المباركة، قائلين إن حرب الدرعية جرت الويلات على شبه جزيرة العرب، وكان الأولى بذوي الفطنة من أمثال جده، أن ينبهوا القيادة إلى أن بقائهم في قصور (أو جحور) الطريف، ليس من الحكمة، وفيه تعريض لنسائهم وأطفالهم وأرواحهم ودولتهم لمخاطر جمة. فأجابهم وهل يظن أحد أن الجد علي ما كان إلا واحد من آلاف المجاهدين للدفاع عن الدين والديار، وإذا كان أكثر من ثلث أقاربه يرون أنفسهم أفهم خلق الله، ولا يقبلون مشورة منه أو غيره معتمدين على الفكر الأهوج والعمل الطائش. ثم هل كان ليقدر على المساهمة برأيه والملك في يد الإمام عبدالله ومعه أبنائه، وبجواره إخوته ويحيط به أعمامه وقرابته، فليرحم الله رجلاً يعرف قدر نفسه، يعمل ما في وسعه لينفذ الأوامر الصادرة له، وما جاء للأخدود إلا ابتغاء رضا الله، مخاطراً بالنفس والمال في سبيل ذلك. خشية أن يحتد النقاش سارع أحد فضلاء الحريق، للقول أن أبو خالد يقصد أن ما اختاره الله لعباده هو الخير، فتعلمون أن ذرية المؤسس حينذاك ينوفون على المائة،

وقد انقرضوا جميعاً ما عدا نسل رجل واحد فقط (تركي)، هم الباقون حتى الآن وفيهم البركة والخير بأذن الله ولا داع للمزيد!

ونعود بعد هذا لأعلى وادي غبيراء عام 1233هـ حيث عاين الجد بعد الغروب هلال الشهر، فدعا الله أن يهله بالأمن والإيمان على أمة الإسلام، وأن يبارك لهم في رجب وشعبان ويبلغهم رمضان، ويوفقهم في ذلك الشهر للبر والتقوى، وأن يهديهم للعمل بما يرضى ويعينهم على دحر البغاة المعتدين. لقد كان وصول الباشا للعلب قبل شهرين، كارثة على المسلمين أنزلت القنوط في بعض النفوس، أما دخوله القري فهو الطامة الكبرى، حيث دخل الخور في قلوب الكثير، وأخذ الطامعون في استرداد إمارتهم يتوافدون على مخيم الباشا مستسلمين له، معتذرين عما بدر منهم من معاونة عدوه، وناقمين على ذرية الإمام سعود (أبوشوارب) الذي آذاهم في دمائهم وكرامتهم وأموالهم، طالبين الصفح والغفران من مقامه الكريم وجنابه العظيم متسولين استعادة مناصبهم السابقة. وقد ذكر البعض أن كثير منهم يجبرون على الحط من أنفسهم، قبل أن يسمح لهم بمخاطبته، ومن ذلك ما قاله له أحدهم أن الباشا يجلس علي كرسي في صدر سرادقه، يعلو ثلاث درجات عن الأرض المفروشة بالزرابي العجمية الثمينة، ومن الباب حتى عرشه يصطف أعيان رجاله على يمينه، يبدأون بالأفندية وهم الكتبة والمحاسبون والإداريون، ثم يليهم الدالاتية ووهم خبراء القتال، ثم الأغوات وهم ضباط السلاح والذخيرة ورؤساء الخدم، وبعدهم البكوات أي معاوني الباشا في أمور الحرب أو شئونه الأخرى. ويأمرون كل عربي أن يصافح جميع من في الصف، وبعد أن يسحب يده من يد الرجل فعليه تقبيلها، كل هذا والباشا جالس يحادث بلطف مجالسيه، فإذا اجتمع نحو ثمانية منهم قبالة كرسيه على بعد خطوات، أمرهم الحرس الغلاظ بتقبيل الأرض أمامه، ولا يرفعون رؤوسهم إلا بعد صيحة من الجنود، فيجدون الباشا يحملق فيهم بازدراء، وبعد أن يشيح بيسراه تجاههم يدفعهم العسكر نحو كوة على يساره، يسيرون نحوها على جنب فلا يرى أدبارهم. وحين يخرجون يجدون الكتبة يسجلون في دفاترهم اسم وقبيلة وبلدة المرء , الذي يحذرونه بعدم التعرض لرجال الدولة حتى لا يكون القتل جزائه, ثم يناولون كل واحد صرة فيها بين ثلاثين وعشرين ريال (فرانسي ماريا النمساوية) كل على قدر مقامه, حيث معهم رجال من قبائل نجد الموالية لجيوش السلطان يعرفون الناس. قال الجد إن بطن الأرض خير من ظهرها, لمن يوقن أن لا سجود إلا للخالق فرد عليه آخر, بأن ذوي المقامات العليا يدخلون في مجلس مختلف، وقد جاء عند الباشا من يطلبون إعادتهم لمناصبهم القديمة زمن آباءهم, لكن فطنته حذرته من ذلك, فإعادتهم لمناصبهم لا تجعل له منة عليهم, فهم يرون ذلك حق مكتسب بالوراثة وليس له فضل كبير عليهم, ومن ذلك أنه رفض

تعيين العايذي ليكون أميرا على اليمامة كما كان أسلافه, واكتفى بجعله رئيس بلدة الرياض القريبة من الدرعية.

بقي الجد في مكمنه في رأس التل الصغير، وعلى الجنوب منه برجان حجريان ضمن السور، يقيم فيها الأمراء ومعاونيهم خاصة أثناء شدة العواصف الترابية، وكان يدخل عندهم بين آن وأخر لتناول الطعام أو القهوة، لكن الجلوس في الخارج كان أزكى إذا اعتدل الهواء، كما يصعد أحياناً للسطح لمراقبة حركة العدو، سواء في القري أو على السفح الغربي. لقد كانت الرؤية غير واضحة لبعد المسافة، وعجز ناظوره المبسط عن التقريب، كما أن عوائق الصخور والشجر تحجب المشهد، وكان يتفكر دوماً في سبب ذلك السكون، فإن العدو لم يسافر عبر تلك القفار للدفاع عن بلده، وإنما لغرض خبيث لابد أنه يضع الخطط لبلوغه، بينما قيادتهم تستكين في انتظار ما يقوم به البغاة لمحاولة صده، كأنهم ظباء تحوم حولهم السباع لافتراسهم، وقد حرموا أنفسهم من أي خيار للنجاة. كان صدره يمتلئ بالغيظ مما هو فيه، ويتعاظم ذلك مع ارتفاع حرارة الهواء، وخاطره يزداد كآبة في أيام شدة الغبار، بخاصة حين يتذكر ما مر عليه منذ غادر بلدته قبل شهور، حيث تسير الأمور من سيء إلى أسوء، تراوده الهواجس بأن يعود إلى أهله الذين ازداد شوقه لهم، لكن يسلي نفسه ويقويها بقول "مكانكِ تحمدي أو تستريحي" كان لا يمكنه قبول الاستسلام وتقبيل الأرض أمام الطاغية، لكن عليه طاعة ولي الأمر "أبوسعد" دوماً. جاءهم بعد أيام مندوب الأمير تركي بن عبدالله، بدعوة للبعض للقاء في خيمته الملاصقة للحائط الغربي، حيث وجدوا حشد من المقاتلين وبعض الأمراء، ولدهشة الجد لاحظ أن الأمير فيصل بن سعود كان مع الجالسين، ولما سأل أحدهم همساً عن وقت قدومه ومكان وجوده في الفترة الماضية، أجابه بعدم معرفته سوى أن الرجل قد بات ليلته في البرج، الذي دخلوه لتناول الطعام. ثم تحدث إليهم فيصل وفي صوته رجة, أما وجهه ويداه وكتفيه فتهتز باضطراب, وأطال الكلام والجميع صامتون, منه القول أن العدو قد يأس من اقتحام الدرعية عنوة, لذا أشار عليه الطليان والفرنسيس بعدم جدوى ذلك بعد ثلاثة شهور من الفشل, وأن عليه أن يركن نحو الحصار الطويل, ويمنع دخول الذخيرة والطعام والمسلحين, وحث الناس على الخروج بما خف, ثم أنه أردف بعدم قبوله البقاء تحت الحصار المشدد, كما أنه لن يقبل الهوان كما فعل أحد أعمامه واثنان من اخوته وولد الشيخ محمد, الذين ذهبوا يرجون الباشا هدنة في الشهر الحرام, اكنه رفض ذلك وأغلظ عليهم. لذا فهو يزمع استعادة السلماني وجعله قاعدة لهجمات على القري، حتى يكل الباشا ويقرر الرحيل مع مشاوريه وحرسه. عند ذلك تحدث أحد البرقاوية بكلام لين، فأثنى على الأمير وحرصه على الخروج من الأمر بأقل خسارة، لكنه حذر أن السلماني لا يبعد عن مقر الباشا إلا مسافة قصيرة، وهناك مدافع قوية يمكنها الرجم لمكان بعيد، ولا

يعتقد أنه سيقبلون التواجد قربهم، لذا فإن العمل قد تكون فيه مخاطر جمة. تمعض الأمير لكنه لم يتحدث، بل بادر أجد بطانته بذلك، قائلا ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين، منوهاً بذلك لقول يوشع بن نون. ولما ساد الصمت برهة قال آخر إن هذا هو "الملك" وقائد الواجهة الأولى، حيث قال من سبقونا لنبيهم ابعث لنا ملكاً نقاتل، فلما بُعث لهم قالوا أنى يكون له الملك علينا، في إشارة لطالوت وداوود عليه السلام. فهمس أحدهم في أذن الجد بأن الحواشي يجعلون الرؤساء مثل الملوك والأنبياء، وقطع الصمت فيصل قائلا إن السلماني به نحو خمسين من عسكر العدو، وسنكون ثمانين نسطو عليهم ليلا وهم في سبات ونسترد السيطرة على القصر، ونمنع تواجدهم في قاع الوادي. ولما محص النظر في الوجوه، التي معظمها غير مستحبة لرأيه، قال إنه سيهب كل مشارك أربعين ريال فرانسة، والمصاب يتكفل بعلاجه والقتيل يمنح أهله أربعين ناقة. غضب الجد لسماع قوله وتأهب للرد لكن أحد بني عمه سابقه، فقال للأمير نحن ما تركنا أهلنا وزراعتنا وأنعامنا وتجارتنا إلا لصد أهل الكبرياء والبدع، مخاطرين بأنفسنا وأموالنا في سبيل الله، وإن بيوتنا بها قدور رواسي مليئة بالفضة والذهب، ومن يلزمه شيء منها نرسل لإحضارها. فرد عليه فيصل شاكراً حماسته وأوصى أن تكون فعالهم مثل أقوالهم، ويبادروا لهبة قوية تعيد السيطرة على بطن الوادي وتخزي عساكر الطواغيت، قبل أن يتمكن أبناء المؤذن والوردان من السيطرة على السفح كله، ثم أشار إلى أحد رجاجيله (عنبر) أنه سيتولى قيد سجل المجاهدين، وعلى الراغبين التأهب للهجوم خلال الليالي القادمة. حينذاك تحدث الأمير سعد (إبن إمام الدرعية) لأول مرة في ذاك المجلس، وأوصى أن تتم مشاورة الطريف قبل الإقدام على أمر خطير كهذا، فنظر إليه عمه في شزر قائلا أن والده قد غادر قصور الطريف البديعة، وتوجه نحو البجيري المكتظ بالبيوت والسكان، ثم قال لا أظن أن الجماعة ذهبوا للباشا في صغار إلا برأيه، ثم رمق بنظره نحو أحد مماليكه الذي صاح قائلا، لو سرت إلى معدن أبين لتبعناك.

جلس آل خثلان في مكمنهم عقب العشاء الآخرة، يتداولون في مسألة الهجوم على السلماني، وكان الجد علي مع رأي أغلبية جماعته برفض المشاركة في ذلك، حيث أكد بعضهم أن فيصل رجل متهور سيء التدبير، وقد شاهدوا أفعاله خلال السنوات الماضية في بسل وبقية مناطق الحجاز، ثم في القصيم وبعدها في الوشم، ولم يروا منه حسن تفكير ولا تدبير، بل هزائم وتقهقر وسوء معاملة. كما لاحظ آخر أن كافة الأمراء في ذلك المجلس لم ينبسوا ببنت شفة، ماعدا كلمة سعد إبن الإمام التي لم يدعه يكملها رغم وجاهتها، بل أسكته بجفاء، ولا يعتقد أن أحد منهم سيقبل العمل تحت إمرته، وبخاصة في تحرك أهوج كهذا لا طائل من ورائه، وقد نهى الله عن إلقاء

الأنفس إلى التهلكة. لكن أحد أبناء العم كان له رأي مغاير، فإن الصحابي أبو أيوب رضي الله عنه، يرى أن التهلكة هي التخاذل عن قتال العدو، ثم أردف أن لا أحد يرضى بحالنا هذه، نتسدح ونتبطح منذ ثلاثة شهور ونرى العدو يقتطع كل يوم جزء من ديارنا، ويعمل بهمة لإفساد ديننا وأخلاقنا، لذا علينا ألا نفوت فرصة واحدة لمدافعتهم وإلحاق الخسائر بهم. واستمر الجدال حتى انقضى الهزيع الأول من الليل، عندما طلب الجد وثلاثة من بنو عمه بعض الوقت حتى يعيد النظر في الأمر، على أن يزودهم بقراره عند ظهر الغد. ثم تحول حديثهم نحو صحة ما رواه الأمير فيصل عن قيام البعض بالذهاب للباشا لطلب هدنة طيلة شهر رجب الحرام، فقال أحد العمال أن قريبه كان مع الوفد الغفير، الذين استقبلهم الباشا بحفاوة وإكرام، لكنه تغير بعد أن سمع قولهم عن حرمة القتال في شهر رجب الحرام، فقال أو ليس قتل الحجاج في البلد الحرام أسوءا من ذلك؟ وأشار إلى رجل من صحبه قائلا إن "الخليلي" سيرد على قولكم، وهو شيخ الإسلام في غزوتنا هذه ولا نخرج عن فتواه، ثم أردف بأن الوهابية خوارج على خليفة الله في الأرض، وقد قبل كافة المسلمون من جاوة شرقاً حتى مراكش غرباً خلافته، ولم يخرج عن طاعة إسلامبول أحد قبلكم، منذ حمينا مكة والمدينة والقدس من الصليبين قبل قرون، وعليكم الآن التوبة عن جرمكم والعودة للإسلام ومبايعة الخليفة. ثم قال للشيخ علي أليس الأولى أن ترشدهم للطريق القويم؟ وتحثهم للمشاركة في جهادنا ضد أعداء الإسلام من الروس والصرب والانجليز، وتنهاهم عن تكفير وسرقة وقتل زوار بيوت الله. وأنتم يا آل مقرن لماذا تركتم نسبكم إلى أبو حنيفة الإمام الأعظم، وصرتم تنتسبون للوهابي الخارج عن إجماع أمة محمد، لقد عرضنا يا عبدالله على أبوك وأخوك منصب قائم مقام والي البصرة في نجد، شريطة تأمين سبل المسافرين وإرسال ثلاثة أخماس الخراج لسيدنا السلطان محمود، وإذا أثبتم الجدارة نجعلكم ولاة بلاد العرب، ماعدا مكة وصنعاء ومسقط، لكنكم أبيتم ذلك واخترتم أن تكونوا لصوصاً وقطاع طرق خوارج. ثم التفت قائلا وأنت يا محمد لقد جاءني قبل أيام أحد أقاربك، مبيناً أن آل مقرن والوهابي قد قتلوا شيخكم وهو يصلي، وأنهم قد سئموا التكفير وسفك الدماء وسلب أموال الناس، ويريدون العيش في سكون مطيعين ولي أمر المسلمين، والخليفة الذي انعقدت له البيعة الشرعية من الجميع، فماذا تريد أنت ولماذا تعاون المرتدين عن طاعة الله والرسول وولي الأمر. لكنه قبل أن يجيب سارع أحد العايذية، فقال هذا جده محمد بن سعود مؤسس العهد مع محمد بن عبد الوهاب، وهو مخلص لهما كثيراً، رغم أن أسلافه جاءوا للعارض قبل آل مقرن، فكانوا يحكمون كل منطقة حجر اليمامة، وذلك ضاع منهم بعد حركة الوهابية، لكن الباشا أشاح بوجهه عنه وأمر للخليلي أن يرد عليهم. اعتدل الرجل في جلسته وأصلح طربوشه، معرفاً بنفسه أنه مفتي بلدة أريحا المجاورة لبيت المقدس، في الأرض المباركة من الشام، ثم تساءل إذا كانوا يعرفونها، فأجابه الشيخ علي إنها

بلد القوم الجبارين، الذين قال بنوا إسرائيل أنهم لن يدخلوها ماداموا فيها، وطلبوا من موسى أن يذهب هو وربه لقتالهم. فحينها اغتاظ الخليلي وصاح مادمتم تعرفون كتاب الله فماذا دهاكم، لماذا ترتدون عن دين الله وتضعون دين جديد مثل ما فعل مسيلمة الكذاب في هذه الأرض زمن الرسول وخليفته أبو بكر، ولماذا تعصونه وقد نهانا أن يكفر بعضنا البعض ثم نقتتل، أليس منكم رجل رشيد ينصح قومه بالكف عن أساليب فرق الباطنية، التي تدعي التقيد بالإسلام وهم يحاربونه. ولماذا تفعلون مثل القرامطة وتقتلون الحجاج في البلد الحرام والشهر الحرام، وهم آمون المسجد يبتغون فضلاً من ربهم، وقد قال سبحانه "وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل" ثم بعد جرائمكم هذه تطلبون من حضرة الباشا وقف القتال في الشهر الحرام الذي لم تحترموه. أو لاتعرف يا علي أن السنة لا يزيغ عنها إلا هالك، وأنتم زغتم فأزاغ الله قلوبكم، فهل في هديه أو صحبه مسألة الألوهية والربوبية، التي فعلتم مثل القرامطة بامتحان الناس بها، ومن لا يطابق قولكم كفرتموه وقتلتموه عند الكعبة حاجاً. تعون التوحيد وأنتم أهل الشرك، فإن مقتضى التوحيد هو أن كافة أعمال الخالق أو المخلوقين له وحده فقط، صاحب الاسم الأعظم "الله" لا يشارك فيه أحد، ولا يخلق ويرزق وينصر إلا هو، ولا يدعى ولا يحلف ولا يذبح لأحد سواه، أما العظيم أو العليم أو الكريم أو الرب فيشترك معه بعض خلقه، وقد ورد أن "أحدكم يسقي ربه خمرا" والمرأة ربة بيتها وكذلك الخادم "معاذ الله إنه ربي أكرم مثواي" والدعاء مخ العبادة وهو الصلاة فيصرف لله بأسمائه الحسنى "ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعو فله الأسماء" فلماذا تكفرون أهل القبلة إذا لم يعرفوا تدليسكم و"تشبيهكم" عن الفروق بين الله والربوبية، وهل لديكم حقاً 99 صنماً في أزقة الدرعية، تنصبونها مثل الوثنيين فهذا إله المطر وذاك إله الصحة وهلم جرا. بينوا للناس إذا كنتم موحدين حقا، أو أنكم باطنية تدعون غير ما تبطنون من شرك وردة، أو خوارج تسبون الصحابة والعلماء الربانيون وتتبعون كل معتوه أو زنديق، فقد سمعت أحدكم يقول نحن لا نعرف القرآن ولا السنة، بل نعرف شيخنا المقدس ابن تيمية، الذي كفانا معرفة وتأويلا. رد الأمير عبد الله إننا لسنا خوارج، فصاح الخليلي بأن هذه شنشنة نعرفها عن الزنادقة، فمن لا يوافقهم على الباطل يكذبونه ثم يكفرونه ويقتلونه لسلب ماله، ولا يقبلون قول أحد سوى كبرائهم، الذين اتخذوهم أرباباً من دون الله، كما فعل اليهود والنصارى مع أحبارهم ورهبانهم، وانتم مشايخكم الوهابي وتيمية وحرقوص، الذي سب الرسول وأجمع الصحابة أنه أحد آلاف منافقي يثرب، أما أنتم فترون أنه بدري جليل لا ينطق عن الهوى، فعليكم من الله ما تستحقون ما دمتم خالفتم النبي والفاروق المبشر بالجنة، فعساكم تحشرون مع أمثالكم من المرتدين. قال له الشيخ علي أن الدرعية قامت بخدمة الحرمين، وأمنت الطرق وكست الكعبة بالديباج والحرير، وحكامها يحجون كل سنة وغيرهم لم يحج البتة، وإنما يرسلون محامل فيها البدع والطبول والتنباك، وما يجب

على كل مسلم أن يطهر بيت الله منه. فزمجر صاحب أريحا، وقال تكسونها بمال حرام من السطو، ومنعتم السرقة على غيركم وأجزتموها لأنفسكم، وهل ترون إدخال الكسوة على الجمل قرب الكعبة كفر يستحق القتل، لقد دخل المصطفى الحرم وطاف على الكعبة وهو راكب ناقته، والصحابة حوله يتزاحمون على بولها ليشربوه، ولم يقل لهم أحد أنهم يعبدونها، فلماذا قتلتم ذلك المسكين الذي أخذ من بقايا الناقة ليخلطه مع زمزم، ويقطره في أذنه التي تؤذيه منذ سنين بدعوى أنه يعبد الناقة، فرد عليه الشيخ بقول "ربنا لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا" وهنا زمجر الخليلي بالقول ولماذا تقتلون سكان بلدة كاملة، حتى نسائهم وأطفالهم و تسلبون حليهم بحجة أن أحد السفهاء لم يحسن دعاء زيارة القبور، ولماذا تتبعون فتاوى المعتوهين الذين يكفرون من يزور قبر الرسول ويبيحون قتله، ويشبهون على التفسير بقول أن معنى "حتى زرتم المقابر" هو الدفن، ألا تعلم عن قول النبي كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، وهل تجهل أنه كان يركب لساعات حتى يزور قبور شهداء أحد مرة أو أكثر في كل شهر، بل ويبيت هناك أحياناً، وهل تشد الرحال لزيارة حجارة المسجد، ويكفر من ذهب للمدينة للسلام على خير الأنام. يا قوم إنما ادعوكم إلى سبيل الرشاد، وأن تعودوا لملة الإسلام ثانية وتتركوا اجتهادات أهل قرون الشر الذين روجوا لفكر الخوارج. وابتعدوا عن تدليس إبن قيم المدرسة الجوزية، الذي ادعى أنه هذب الأفكار المعتوهة لإبن تيمية بحجة أنه توضيح، وهو في الحقيقة تدليس وخداع لا ينطلي على عاقل. أشار الشيخ علي بيده ثم قال إن أبي لم يكفر إلا من كفره الله، ولم يجز لأحد أن يكفر أهل القبلة بغرض قتلهم وسلبهم، بل لا يكفر إلا من تقام عليه البينة، ثم يستتاب ويرشد إلى درب الإيمان فإن أبى فذاك شأنه. فاكفهر وجه الخليلي وقال هذا هو ما يقوله معتوهكم الحراني، ثم جاء قيم المدرسة وأدعى أنه لم يشبه ولم يمثل ولم يعطل، وأن ما قاله عنه أهل الشام أنه شبه نزول الله بنزوله وهو يعرج، هو كذب وافتراء عليه وهو لم يحضره، وأن من جروه من رجله من المنبر إلى خارج الجامع الأموي، وضربوه على وجهه وقفاه بالنعال، ثم سلموه لصاحب دمشق ليحاكمه ويسجنه بعد أن أُقر على نفسه بذلك هم كفار، لكن ما العمل مع الخوارج الذين اتخذوا مشايخهم أرباباً، ويكفرون من لا يرضي بعصمتهم وتقديسهم. ثم اسمع مني يا علي، إن أباك قد جلب أحد شعراء الإحساء المداحين يقال له غنام، وأملى عليه سيرته كاملة، فيها من فواحش عمله ما يأباه كل ذي دين أو خلق، ثم أمر أن ينسخ منه عدة كتب ووزعها على أعوانه، وقد وصلت إلى شريف مكة نسخة عليها علامات بخط أبيك، وهي محفوظة في إسلامبول عند سيدنا الخليفة نصره الله، ونعلم أنكم ستدلسون ذلك لاحقاً كما فعل إبن قيم، وتزيلون المخازي ضدكم وتدعون أنها تلفيق الكفار، فلعنة الله على الكاذبين. يا علي كل الناس يعلمون أنك وأخوك عبدالله لم توافقوه على المنكرات، من تكفير من لا يعرف الفرق بين الألوهية والربوبية ثم قتله، ولهذا طردك من الدرعية إلى دخنة، لكنه لم يسجنك

حتى الموت مثل ما فعل مع أخاه الأكبر، فعليكما أن تذهبا لإمامكم وتبينوا عدم جواز تكفير وقتل أهل القبلة الذين يجهلون بعض تفاصيل الفقه، ثم بعد ذلك عليكم ----- عندها أشار له الباشا بإصبعه قائلا بلجته الركيكة "انتزر" ثم تكلم عن أن هذه بلاد قاحلة وصحاري جرداء، ولا أحد يطمع فيها لكن سيدنا لن يقبل أن تكون وكراً للصوص، الذين يسرقون ويقتلون الحجاج المارين بجوارهم. لذا عليكم إفهام أميركم بعدم قبول أي هدنة رجبية أو مصالحة، فقد نقض الصلح السابق مع أخي طوسون بالغدر، فعليه أن يسلم نفسه للرحيل لمصر عند سيدي الوالد الباشا الكبير، وسأعطيه عهد أن يعامل باحترام وكرم وعدل، كما أننا لن نمس أحد من أسرته وحريمه سواء ذهبوا معه أو بقوا في الدرعية، وإننا سنحافظ على أرواح وأموال ومنازل وأثاث الجميع، ما عدا من تثبت عليه جرائم شنيعة فسيحاكم بالإنصاف. وسنعين مأمور عادل وفاهم يحكم نجد ليضمن الأمن في المنطقة، والطرق المجاورة التي يسلكها الحجاج والتجار، وسنجلب العارفين بأمور الزراعة والري ورعاية المواشي، ليساعدوا الأهالي في تحسين حالهم السيئ، ويبنوا لهم المعامل التي تجلب لهم الكسب الحلال، بدل امتهان قطع السبل والسرقة، فإذا وافق على ذلك فهو خير له ولكم، أو كما ترون معنا متفجرات تجعل عاليكم سافلكم، لكننا لا نريد إيذاء المستضعفين من نساء وأولاد وبهائم. وليس عليكم سوى إقامة الصلاة وأداء الزكاة، والجهاد مع جنود الخليفة ضد أعداء الإسلام، الذين يجبرون الناس على الدخول في النصرانية.

في مجلس آل خثلان قرب مكمنهم الغربي، ارتفع صوت بعضهم باستنكار ما روي لهم عن غطرسة الباشا وشيخه، وتخاذل قومهم عن القتال، لكن أحدهم شكك في دقة ما نقله الراوي، واستحلفه عما كان ذاك هو ما سمعه بدقة؟ فأجاب أن ذلك هو ما سمعه من قريبه الحاضر في المجلس، بصياغة ذاتية لنفس المضمون. وسارع أحد الخثالين للقول أنه لن ينتظر للغد، حتى يخبرهم عن المشاركة في الهجوم، بل يسجل اسمه من الآن فإن الموت أحب إليه من المذلة، وأنشد قريبه "إذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل" ومجاور له قال إن الجهلاء لا يوآخذون على كلامهم، فما دام كبيرهم يظن أن وادي حنيفة منسوب للإمام أبو حنيفة النعمان فلا حساب على ثرثرته. لكن آخر منهم قال أنصحكم يا أحبتي أن تتركوا المكان وتعودوا لأهلكم، حيث الانكسار قادم لا محالة للدرعية فأرحلوا قبل الزحام، فإنما أشير عليكم بالبحث عن السلامة والعافية، فوبخه أحد بني عمه ليرحل هو ويتبع أصحابه، الذين تولوا عن الجهاد حينما رأوا أول ثلم في السور الشمالي للدرعية، لكن آخر اشتد عليه أكثر متهماً إياه أنه مخلب هر ضد أسرته ويتبع امبغضين لهم، وكل همهم طعام موائدهم الكريهة، ولا يرضى لأقاربه إلا الخزي والهوان، فرد عليهم آخر بترك الجدال العقيم، ومن أراذ الرحيل فهذا درب الحريق، ومن عزم على القتال فليحسن

النية ويجتهد في العمل. ساد المكان الصمت فكان الجد علي يسترجع ربه لما أصابهم من مصيبة عظمى، ويحوقل سائلا الله الثبات والتأييد بنصره، ولما سألوه عن تسجيل اسمه مع المهاجمين، أجابهم أنه على قوله بالتريث حتى ظهر الغد. توجه قبل الظهر بعد الفراغ من وجبة الغداة، نحو معسكر الأمير سعد أكبر أبناء الإمام، فوجد حشد كبير يلتفون حول المكان، وهناك عمال يحجبون الدخول إلا لمن يثقون فيه، فعزم على العودة لكنه صادف رجل من كبار سبيع، أشار لهم فدخلا سوياً حيث الأمير واقف يودع أحدهم، فعرفه على الجد ثم انصرف، جلس في فسحة لا تبعد عن الأمير سوى خمسة رجال، ثم أخذ يتأمل ملامحه فلاحظ على وجهه البساطة والبرأة من الضغائن، أما حديثه وإشارات يديه وحركات بدنه فتنم عن السمت الراقي والسماحة والفطنة، ورغم أن سنه يقارب ابنه عمر إلا أنه التزم بأن لا يحادثه إلا بصياغة أخوية. وفي الأثناء تحدث رجل على ميمنة الأمير معرفاً بالجد، أنه من أعيان أسرته الذين في الحريق والحاير، ونعرف عن أكثر أفرادها الصدق والثبات على العهد، فرد عليه بصحة ما قال حيث لم يولوا الأدبار حينما سمعوا دوي المدافع تدك بنايات الوادي، لكن أحد المقربين من الأمير قال مازحاً، معنى كلامك أن في أسرته آخرون غير ذلك، فسارع الجد لقفل ذلك الحديث بالقول أن كل عشيرة فيها الأتقياء والأشقياء، نسأل الله الهداية للجميع. تذكر الجد ذلك الرجل من السهول، الذي رآه مرة واحدة في الحريق في العام السابق، وكان قد جاء لشراء أغنام فباعه أحد الخثالين عدد منها، وبعد يومين اكتشف أن بعضها مريض، فعاد إليه ليبدلها فرفض متسائلا إذا كان هو وعياله عميان حين الشراء، واتهمهم أنهم قد أمرضوها وأغلظ عليهم، ثم أشار عليه أحدهم أن يراجع الجد ليحض قريبه على استبدال بعض منها. فلما جاءه أكرمه ثم حضه لدخول المراح ويأخذ ما يشاء، ثم أعطاه كتاب إلى قريب خثلاني في الحاير، ليعوضه مما لديه فيما لو مرض شيء منها في الطريق. بعد ذلك التقي مع ذلك البائع مع الجماعة ، فوبخ الجد لأنه يسمح للغرباء أن يغلبوه على حلاله، فرد أمام الجميع بأن الصالحين لا يغشون، ولا يرضون بالإهانة لأنفسهم وأسرتهم لقاء بعض البيزات، ثم تلى قوله تعالى "تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فسادا" جرت محادثة مسهبة في مجلس الأمير، وانتهز الجد فرصة للقول أنه قرر المشاركة في عملية السلماني، إذا لم يعترض ولي الأمر، فجاوبه أنه قد أخبر أباه البارحة، وهو يرى أن كل ما يفت في عضد البغاة محمود، وهم على كل حال مشغولون بتثبيت مواقعهم أعلى التلال، ولا يبدو أنهم يكترثون لبطن الوادي. ولما قام الأمير لتحية بعض الوافدين، سلم عليه الجد للمغادرة، فشد الفتى على يده ودعا لهم بالسلامة كما حثه لتكرار زيارته.

قبل المغيب جاء رجال من طرف الأمير فيصل، ونادوا على المسجلين في بيان المجاهدين، ثم اصطحبوه إلى الأسفل حيث بدأوا شرح خطة الهجوم، وحثوا على من لديه شكوك بالبقاء هناك، كان مع الجد ثلاثون رجلا معظمهم أصغر منه سناً، لكنه من أطولهم وأقواهم، ومنهم من آل خثلان اثنان ومن الحريق والحوطة والدلم ومنفوحة والمحمل وسدير البقية، قدموا لكل منهم "طبنجة" وهي سلاح ناري، تنطلق منه قذيفة من البارود وقطع صغيرة من خردة الرصاص، وهو يشبه الفرد لكنه أطول ومقبضه من العاج، ومزين بنقوش مذهبة وعليه لصقات بيضاء وكتابة غير عربية. كما زودوهم بدورق معدني (إبريق) به خليط النار، ويتم حشوه في انبوب الفرد بواسطة ملعقة (خاشوقة) معدنية تثبت في الأشفل، بعد ذلك يجري سحب ركاب الزناد للخلف حتى يعلق في النهاية، وبذلك تكون الطبنجة جاهزة للرماية بمجرد سحب الزناد، مما يؤدي لانطلاق الركاب نحو اداة الاشعال، فتنطلق شرارة ثم لهب ويخرج الرصاص الساخن، مثل مقذوف الشوزن حالياً، فيحدث إصابة غير قاتلة لكنها مؤذية. لمرة واحدة فقط قاموا بتمثيله أمامهم، لكنهم رفضوا أن يقوم كل مقاتل بتجربته، قبل مباشرة الالتحام، لتجنب إحداث ضجيج يتردد صداه في جنبات الوادي الضيق، ويلفت انتباه العدو أو جواسيسه لما يزمعون القيام به عند الظلام. كان القمر يغيب بعد الشمس بأربع ساعات، لذا جلسوا لاحتساء القهوة بعد الصلاة لتصرف عنهم النعاس، ثم جاءهم الأمير وأحد أشقائه ومعهم عشرون من المماليك الزنوج الأشداء، فحيا المجاهدين الأبطال كما قال، وكانت على رأسه قلنسوة معدنية لامعة، وعلى بطنه وظهره قميص من أدم سميك، بدا للجد كما لو أن به حشوة من صفائح حديدية. هبطوا جميعاً نحو بطن الوادي، فوجدوا رجلين يقفان أمام كومة لم يتبين للجد كنهها، ولما اقترب حامل المشعل رأى أنها حطب وسعف نخيل، ثم قام فيصل بتقسيم الكتيبة إلى مفرزات، إحداها منه وثلاثة من خدم والده وإثنان من أهل الدرعية، وأخرى مثلها لشقيقه والبقية كل مجموعة من خمسة أشخاص، يرأسها مملوك ويعاونه آخر وفي صحبتهم ثلاثة من أهل العارض أحدهم الجد علي، ومن تبقى من الرجال انضموا لفرقة واحدة سموها الرديفة، وبها ثلاثة من الزنوج الأقوياء، وطلبوا منهم حمل حزمة من الخشب، والتوجه نحو الضفة الشرقية للوادي. تزايد هبوب الرياح فغدت "صرصر عاتية" ثم علا الغبار، كانت تلك الشهور مليئة بالعجاج أكثر من المعتاد، لذا تمهلوا قليلا في المسير حتى وصلوا الجهة الجنوبية للسلماني، وهناك وجدوا مزيداً من الخدم معهم كمية أخرى من الحطب، كان بعض الكبار قد أنهكهم المسير في العاصفة حاملين الشجر، لذا جلسوا للاستراحة في صمت حتى لا يفطن لهم العدو بالداخل. لاحظوا في الظلام الدامس أن العمال يرصون الأغصان والخشب عند الحائط، وقال أحد الرفاق للجد أن هناك باب خشبي كبير، يبدو أنهم يزمعون حرقه والدخول منه، وجرى ذلك حيث صبوا الزيت وأحضروا خيوط فتيل الاشعال، لكن وميض البرق ملاء المكان

نوراً، ثم تبعه هدير الرعد وقطرات خفيفة من المطر، إلا أن حماسة الرجال أبت عليهم التوقف، وبدأت النار تشتعل ملاصقة للباب، فتوجهت خُبرة الجد نحوه للدخول حالما تسنح الفرصة. اشتد هطول زخات المطر فاضمحلت النيران وساد الارتباك، ثم سمع همسة لقائدهم يوجه معاونه نحو "باب القوع" وهناك وجدوا فيصل وزمرته يأخذون من ماء السماء، ويصبونه من أوعيتهم على مكان في الحائط، علم لاحقا أنه كان باب جانبي تخرج منه النسوة نحو الفناء، ثم سده الشيخ محمد قبل موته، وقد انقضى على ذاك ربع قرن وطينته ضعيفة مؤقتة، لذا بداء في الذوبان حين لامسته الرطوبة. كانت فرقة الجد بقيادة رجل فارع الطول، ذو عضلات مفتولة يقال له مبروك، ويعاونه آخر اسمه عنبر كث اللحية أقصر قامة، له صوت رخيم سمعه ذات مرة يؤم الأمير ورفاقه، وقد علم أن كلاهما قد ولد وترعرع في رحاب الإمام سعود بن عبدالعزيز ووالده، وبدا أن لديهم معرفة بفنون القتال، ويتدلي من خاصرتيهما عدة فرود وخناجر، وعلى كتفيهما بنادق قصيرة لا تعيق الحركة، ولا يعصون أوامر فيصل أو يحيدون عنها باجتهادهم. اشتد هطول الصيب تدفعه ريح شمالية نحو الجنوب، مما أتاح للفرقة ساتر عن شدة البلل، فاستمر القوم يسكبون الماء على الباب القديم، ولم يبالوا بصوت حديدهم حيث أمسى ضجيج الرعد يصم الآذان، والبرق يكاد يخطف الأبصار، لذا قدروا أن من بالداخل قد آووا إلى ركنهم. لما اتسعت الفتحة في الجدار نفذ منها بعض صغار الجسم، وأخذ بعضهم يعاون على سحب لبِنات الطين، فتسارع اتساع الفتحة وأمرهم مبروك بالتوجه للداخل، حيث سبقهم الأمراء في صمت وخفة نحو باحة القصر، أما هم فانحرفوا نحو صُفة على اليسار، وكمنوا عند بابها للحظات مليئة بالهلع وأيديهم ترتج من شدة بلل ملابسهم، ثم سمعوا طلقة نارية ارتجت لها الجدران، وكانت تلك إشارة الأمير لبدء الهجوم، وتحول صوت مبروك الهامس إلى زمجرة وهدير، ظن الجد أنه لا يصدر من حلق بشر، وإنما من داخل الصدر تهتز منه شغاف القلوب، وقام بقية رجال سعود بنفس الشيء، ثم اقتحم باب الغرفة الصغيرة وأخذ يطلق النار بداخلها، وعلى ذلك البصيص علم أنها خالية من رجال العدو، لذا سارع وهم خلفه نحو ممر خرج من أحد غرفه زول رجل، فأطلق عليه عنبر رشات البارود فسقط مضرجاً، ثم أمر جماعته بالانبطاح أرضاً، وكلما خرج أحد أردوه صريعاً. بدا للجد أن قائدهم يعرف تفاصيل المبنى في الظلام، لذا تقيد بتوجيهاته حتى لا يقع فيما يجهل، بينما استمرت الرماية من الفرق الأخرى، وبعد السكون صاح بعض المماليك على بعضهم بكلمات قصيرة غير مفهومة، أعقبها توقف تام عن إطلاق النار، ثم دخلوا في وجل إلى بطن الدار الذي غمرته المياه، ولاحظ الجد خيال رجال في الأعلى كاد أن يرميهم بطبنجته، لكن ابن عم له أمسكه عن ذلك وتبيت أنهم من الصحب. أحضروا سراجين جعلت المكان يبدو أقل وحشة، ثم جلسوا في المصابيح عند مكان لم تصبه السماء، حيث شم الجد رائحة التنباك الذي لا يحبه،

لكن له ذكرى حميمة في خاطره، حيث عرفه أول مرة في مكة المكرمة، وغدا يثير فيه الحنين للسعي بين الصفا والمروة، حيث كانت تنتشر دكاكين الشيشة والغليون. لكن مجاوره سأله عن رائحة مختلفة، فقد فاحت روائح بذورات وأفاويه الطبخ، فتوجها نحوها مع عنبر الذي تغيرت رائحته من أريج زباد الحوت، نتيجة بذل الجهد القوي والتحفز والحماسة، ثم ساروا نحو ممر في أقصى الحوي، وهناك تعالت رائحة طعام يطهى، والغرفة جوارهم ليس لها باب، وشاهدوا داخلها على نور اللهب قدور مختلفة الأحجام، تحتها نار ضعيفة ولما كشفوها وجدوا طبيخ قد نضج، فتوجه عنبر صوب باب صغير على الطرف الآخر، ولما جافاه قليلا صاح بصوت مخيف كلمة غير مفهومة، وساد صمت للحظات قطعه صوت صبياني أو نسائي بتحية الإسلام، ثم خرج أربعة نفر مستسلمين فربطهم وأرسلهم عند مبروك. بعد توقف المطر ذهب أحد رجال ابن سعود لإحضار الدواب، حيث نقلوا الجرحى جنوباً إلى غصيبة، وأمر بدفن الشهداء في الرفاع الشرقي، وكان قد بقي زهاء أربع ساعات على الصبح، لذا أخلد أكثرهم للنوم بعد ذلك الطعام الدسم. أعاد رجاجيل الأمير البحث في كافة أرجاء المنشأة وملحقاتها، وسحبوا جثث قتلى العدو وجرحاهم بعيداً من جهة الشمال، في مكان يراه رفاقهم من القري، أما الأسرى فقد ساقوهم مخفورين نحو البجيري. جلس الأمير مع قادته للتداول ملياً، ووجه أحدهم بالبشارة إلى أخاه الإمام عبدالله، مع طلب المدد من الرجال والعتاد، ولما صعد البعض للسطح وجدوا اثنان من عساكر الباشا يتربصون، فأردوهم صرعى واتخذوا مواقع للمراقبة من خلف حجى السطح. جاء مرافق للأمير نحو ثمانية من المجاهدين، ودعاهم للتوجه نحو مجلس متطرف، حيث باشروا عليهم التمر والقهوة وخبز جاف ودبس، ثم طل عليهم الأمير في بشاشة وحبور، شاكراً نضالهم ووقفتهم الصادقة الصابرة، وطلب منهم أن يتوجهوا نحو الجنوب الغربي، يرافقهم أحد مماليكه على أن يبقوا في البرج الواقع عند مصب شعيب كتلة، تحت إمرة أخوه عبدالرحمن الذي يتعرض لضغط من جنود المؤذن، ويساهموا في الدفاع عن موقعهم الحصين، ثم دفع لكل منهم كيس صغير قال أنه حصتهم من الغنيمة، وطلب الجد وإثنان معه إعفائهم من أخذها، لكن أحد الخدم زمجر بأن عطيته لا ترد.

خرجوا ومعهم عدد من العمال ومماليك الأمير متجهين غرباً، وعندما وصلوا قرب مجرى بطن الوادي وجدوه يهدر بسيل جارف، وكان على حافته رجال يحاولون تدبر طريقة لعبور المسيل، لكن ذلك فيه مجازفة خطيرة لشدة جريان المياه، حتى أنها فاضت خارج القناة وتبدو متزايدة، رغم أن السماء شبه صافية. إلا أن أحدهم قال أن شدة المطر البارحة كانت على الحيسية والعيينة والعمارية والوصيل، وما زالت شعبانها تجري بالسيل، وكلها تصل إلى العلب متدفقة نحو عرقة، كما أن خسيف

والحريقة يصبان قدر هائل من المياه في الوادي. لم يتح للجد خيار سوى الصبر والانتظار، وعاد إليه أحد الأقارب من خلف حائط هامساً في أذنه " جود كيستك ترى فيها ذهب ماهوب مصاري" ومعناه التفطن للكيس الذي أعطاهم إياه فيصل، فليس به كما ظنوا قروش مصرية، بل جنيهات، ومعلوم أن الباشا الكبير في القاهرة قد سك نقود خفيفة لا قيمة لها، مصنوعة من النحاس والنيكل والحديد، ويستعملها البسطاء لشراء ربطة ثوم أو حزمة باقلاء، وقد أحضر كميات كبيرة منها مع قوافل التموين لتوزيعها في نجد. استمر تدفق السيل حتى الظهر مع تناقص محدود، وكان من الصعب عليهم البقاء حتى الليل، لذا ذهب البعض لإحضار دواب قوية تساعد في العبور، وقبل الأصيل وصلت عربتي مدافع كبيرة، يجر إحداها ثوران والأخرى بغال، وبعد لأي تمكن الجد وبعض رفاقه من العبور في مشقة وخطر، وذلك تنفيذاً لتوجيه الأمير لهم، بينما عاد البقية للسلماني لحين انحسار تدفق السيول. وجدوا الرفاق في كتلة ينتظرونهم في قلق، وأرسلوا أحد العمال إلى غبيرا لجلب بقية أغراضهم. في الفجر التقوا الأمير عبدالرحمن ومعه اثنان من إخوته، فدقق الجد النظر وهم يتحادثون وارتاح لحسن طباعهم، وجودة شمائلهم وبعدهم عن الطيش (الصرقعة) وأثنى أحدهم على ما قاموا به من تحرير السلماني من البغاة، لكن رفضوا السماح لهم للمشاركة في المجالدة ذلك النهار، وأوصوهم بالخلود للراحة حتى الغد. كان البرج المهيأ لهم مرتب بطريقة جيدة، وبه أثاث ومتاع كاف إلا أن الدرج من الخارج، خلاف بقية الأبراج ذات المعارج الداخلية، كما أن الحرارة فيه معتدلة في الظهر، حيث العادة في وادي حنيفة أن يشتد الحر قبل نهاية برج الثور. عند الطعام تحادثوا حول اقتحام السلماني، وكسب الغنائم مما تركه محتلوه قبل هربهم أو مصرعهم، وقهقه أحد الرفاق أنه قد حصل على مهر ابنة عمه البالغ نصف جنيه ذهب، بعد أن استحال عليه الأمر أثناء وجوده في الحريق، ووعد الحضور بوليمة عرس دسمة فقد أضحى غنياً، فسأل الجد الله أن يرزقه العفو والعافية والسرور. بعد العصر ركب الجد ذلوله مع الصحب، واتجهوا غرباً في صعود وعر تدربت عليه ناقته، ثم وصلوا إلى سهل غير فسيح تحيطه تلال صغيرة، حيث شاهدوا سواتر حجرية محصنة يكمن فيها المجاهدون، ويقابلهم على بعد سواتر قصيرة شاهد الجد عساكر الباشا فيها بمنظاره، فعمدوا للمشي على حذر لئلا تصيبهم رماية العدو، حيث حذروهم أن مخيم ابن المؤذن هناك ومعه بنادق بعيدة المدى. رجعوا للبرج فقال لهم أحد العمال أن الأمراء قد جمعوا الناس، ودعوهم للعشاء معهم عند البرج الثالث جنوباً، حيث وجدوا لفيف من آل مقرن وأقاربهم، وبضعة رجال من الدرعية وسدير واليمامة، فتحدثوا عن أن الباشا حضر بنفسه مع مشاوريه من الفرنجة والطليان، وبعد جولة في المكان قرروا شن هجوم كاسح، يتيح لهم الاستيلاء على الهضبة التي تعلو شعيب كتلة، ثم ينحدروا منه إلى بطن الوادي ليستردوا السيطرة على السلماني، قال رجل إنه يرى سحاب مركوم

(جفيل) جهة القبلة، وربما أن الشعاب قد تسيل غداً مما يصعب خطة العدو، لكن الأمير دعا لوجوب أخذ الأهبة لصد البغاة عن الوصول لبطن الوادي. عند الشروق ركب الجد مع المجاهدين وتحصنوا خلف السواتر، ولم يأتهم خبر عن حركة العدو ولم يشاهدوا إلا زوابع ترابية متناثرة، لكنهم عند الضحى سمعوا صوت قذائف المدافع من ناحية السهل الشرقي، وهو أيسر في الحركة من منطقتهم، لكن الورداني وجنوده واجهوا صعوبة جمة في اختراق التحصينات المنيعة هناك، حيث إن الإمام سعود وأبوه قد شيدوا هناك عدة قلاع متينة، في السنين التي حاول أثنائها المكرمية غزو الدرعية من الجنوب الشرقي. لما أطلق بعض العساكر نيران بنادقهم، رد عليهم أهل التوحيد برماية كثيفة، فهدأت الحال وبدا أن العدو يريد إشغالهم عن إرسال مدد نحو المرتفع الشرقي، لكن ذلك كان صعباً حيث عاد الوادي للجريان.

ذات صباح فوجئ بأحد العمال يهرول نحوه في وجل، واخبره أن قائد الجبهة القتالية قد مات البارحة، كانت قد شاعت أنباء قبل أيام عن خلافات في الرأي، أطرافها من أهل الحل والعقد في البجيري، حيث دعا البعض لوجوب صيانة دماء وأعراض المستضعفين، وايجاد كافة السبل لذلك، حتى لو استدعى الأمر الاستسلام لمندوب السلطان. لذا شعر الجد بقلق شديد فور علمه بوفاة الأمير فيصل بن سعود، رغم ما يراه الكثير من تهوره وعدم تقديره لمن هو أكبر منه، لكنه يتسم بشجاعة وإصرار على مناجزة البغاة مهما كلف الأمر. ولما ذهب لمقر القيادة لم يجد أحد من الأمراء، لذا دعا بعض الصحب للتوجه للطريف لتعزية الإمام في أخيه، لكن بعضهم أمروه بالسكون حتى ينجلي الأمر، ثم همس له أحد الأقارب بأن فيصل لم يتوف، بل قتل في الظلام، ووجدوا جثته مع اثنان من مماليكه، وعليهم أثر طلقات نارية طفيفة وطعنات نافذة، وقد شهد بعض رفاقه أنه خرج مع خمسة من معاونيه، في الهزيع الأخير من الليل صوب الجنوب. نزل الاضطراب على الجد علي، فانزوى في ركن يراجع حاله وما آل إليه الأمر في ذلك الوادي، الذي غطته سحابة داكنة كئيبة واسترجع وأنشد: - --

طوى الجزيرة حتى جاءني خبر -------- فزعـــــتُ فيه بـآمالي إلى الكـذب

حتى إذا لم يدع لي صدقه أمـلاً -------- شرقتُ بالدمع حتى كاد يشرق بي

كثرت الأقاويل وأشاع المرجفون أحاديث لم يتحقق الجد من صدقها، وسمعت في مجلس والدي أحاديث من طلبة التاريخ، والناقلون من الأوراق الصفراء الأجنبية عن تلك الحادثة، التي كان أبي لا يخوض فيها لأن الجد رأى أنها فتنة، ويحث الجميع للإعراض عنها. لكن ما أكد له عمه زيد (الكبير) نقلا عن جده علي، أنه خلال أيام تغيرت الحال على تلك الهضبة القبلية، وجاءهم الأمير سعد (إبن الإمام) يحث على

التقيد بالجهاد ضد العدو، ومزوداً إياهم بكثير من السلاح الجديد والذخيرة الفعالة، التي لا يصدر من إطلاقها دخان يعيق الرؤية. أدى ذلك لزيادة حماسة المجاهدين وعزمهم على الكفاح، لكن قلة متخاذلة رأت غير ذلك، حيث زعق أحدهم لاحقاً أن الهرج والمرج سيكثر، ودعا بعض رفاقه للعودة معه للحريق، لكن الجد رفض موبخاً إياه للتشبه بالأراذل، الذين فروا عند حدوث أول ثقب في السور.

زادت المناوشات شبه اليومية مع العدو، حيث شارك الجد مع رفاقه في منع تقدم عساكره نحو تحصيناتهم، وفي إحدى المرات عثر جواده في حجر كبير، مما أدى لكبوته وإصابة الجد بجرح طفيف، ثم سارع إليه بعض قرابته وعماله وحملوه بعيدا، حيث أخلد للراحة وتلقي العلاج لبضعة أيام. في تلك الفترة اتجه لقضاء وقته في تلاوة كتاب الله، وقراءة السنن الشرعية والتفسير، حيث منذ صغره نشاء في محيط تعليمي جاد، كما توجه لكتابة نبذ عن أحداث بعض الأيام. وجد في الدرعية نوعيات جيدة من القرطاس والقلم، وبتكلفة أقل مما في الحريق، حيث لا توجد إلا في أوقات معينة، فيأتي بها القادمون من مكة والبصرة ومسقط. راودته نفسه آنذاك أن يعود لدياره، فليس على المريض حرج، لكن أنى هذا وقلبه معلق بصد البغاة عن إدخال الزيغ في قلب أهله، فقد كان يطمح أن يعيش سعيداً برضا ربه عليه، أو أن يموت شهيدا إذا قدره الله عليه. ولما أحس بوطأة الجوع على أهل الدرعية، لقلة الأرزاق وغلاء ثمنها، أرسل اثنان من عماله للحريق، وأعطاهم كمية من الورق والأقلام وبعض البذور الهندية، ليوزع بعضها على أقاربه القراء، وتباع كمية في الحلة والباقي يهدى لمحبي العلوم من أهل البلدة، وعلى أن يعودوا ومعهم كمية من الطعام والأنعام. ثم بقي بعد ذلك يفكر أثناء سحابة نهاره، فيما جرى لهم خلال المائة يوم الماضية، ويدون بعض الخلاصة التي تعينه على تذكر الأحداث والأماكن والناس والزمن، قدر المستطاع وفي أوضاع القتال المستعر، لقد تبين له أن تلك الشهور الطوال، قد مرت كأنها "يوم أو بعض يوم" بل تصور أنها مجرد برهة من الزمن، رغم ما جرى فيها من أحداث جسام، لكن هكذا تنقضي الأيام في عجل ولا يبقى إلا العمل الصالح. علم من أمراء القيادة أن الباشا قد سأم طول الانتظار، وقد خرج من القري عدة مرات ليحث المؤذن والورداني على القتال، وأن ينفذوا خطته للنزول وسط الوادي، ثم يقوموا بإبادة كافة من في الأبراج أو خلف السواتر، وبخاصة مع اقتراب شهر رمضان الذي كان يطمح أن يذهب فيه لمصر رافعاً راية والده المنتصرة. لكن كبار مستشاريه وبخاصة الفرنسيس والطليان، أوضحوا أن ذلك سيؤدي إلى مقتلة في عساكره، كما أن مدافعهم الضخمة غير فعالة في المجرى الضيق، على خلاف مدافع ابن سعود (عبدالله) الصغيرة الفتاكة بالخيالة والهجانة. لذا قروا أن القتال من حديقة إلى بستان، ومن منزل إلى قصر في تلك الشعاب الضيقة غير مجدي، وأن الأفضل السعي لإطباق

الحصار على الدرعية، لمنع دخول أي عتاد أو مؤونة أو رجال، كما اقترح عليه بعض رجال قبائل العرب المنشقين، أن يرسل بعض جنوده الأشداء معهم، إلى بلدات سدير واليمامة والوشم والمحمل، ويلزمهم بإرسال مقاتلين في صفوفه مع السلاح والذخيرة، لضمان إحكام الحصار من كافة الجهات. أدى ذلك لتوقف اشتباكهم مع عساكر المؤذن، الذي وجه كثيراً من إمكانياته جنوباً باتجاه مصلى العيد، الذي يقع غرب تلال الطريف وسهلها، لكنهم استمروا يسمعون شدة الرماية عند وسط السفح الشرقي، الذي يقع شمال سمحان والبجيري والمحصن جيداً. في أواخر رجب جاء أحد الخدم يدعو الجماعة إلى وليمة كبرى، قرر الباشا أن يقيمها لكافة الأهالي يسميها الرجبية، وكل من يريد الحضور فهو في ذمة الدولة العلية، شريطة عدم إحضار سلاح فتاك، لكن الجد رأى غير ذلك ونصح بعدم الذهاب، لأن الأمر لا يعدو أن يكون صدقة منه أو خديعة. رفض الكثير وقرروا الذهاب لعشاء الباشا، رغم أن طباخ نوبي عندهم فر من الترك أيد رأيه، فبين لهم أن والد الباشا (محمد على الكبير) أقام قبل عشر سنوات مأدبة كبرى في قلعة القاهرة، دعا إليها كبار القوم من أعيان وتجار ومماليك، وأمروهم بترك السلاح عند الخيل، حيث الباشا مسربل في مجلسه الفسيح ومعه نفر من رفاقه غير المسلحين، ووزعهم على أرائك (كنب) معينة قبل أن يدخل القوم، الذين انتشروا في المجلس على مقاعد وداكات. ولما أصدر إشارته قام رجاله وخرج من داخل صندوق كل أريكة جنود ناولوا السلاح للبقية، ثم صاحوا على العساكر في الخارج للدخول، وجرت مقتلة عظمى سالت فيها الدماء من ساحة القلعة إلى أسفل الجبل، في درب أحمر من الكتل الدموية المتجلطة، ولم ينج من ذلك سوى نفر قليل، هرب بعضهم إلى جنوب صعيد مصر وقصوا عليهم ذلك. ولما كرر نصحهم أبوا قائلين إنك تتبع رأي الطبابيخ، وإذا فيكم خير هاتوا سلاحكم وتربصوا بعيداً، وإذا شعرتم بخيانة هبوا لنجدتنا، أما نحن فنريد أن نشبع من الطعام العثمانلي. بعد صلاة المغرب شعر الجد بالقلق لتأخر عودتهم، ثم فجاءة دوى صوت انفجارات من جهة سمحة، تلاها ضوء أزرق وأصفر ملاء السماء بالنور، فزاد هلعه لكن أحد خدم الأمير قال له أن هذه ألعاب الترك، فهم يغيرون تركيبة البارود بتبديل كمية الملح والفحم والرمل الصيني (نطرون) فيحصلون على قذائف مدفعية غير مدمرة، فبعضها يحدث ضوء باهر يسمونها شِنك وأخرى تحدث صوت قوي يسمونها "فاشنك" لإدخال البهجة على حفلاتهم، مع الطبول والمزامير ورقص السودان. عادوا جماعته ليلا يمسحون على بطونهم ويستاكون مع نظرات شامتة، لكن أحد القرابة قال له ما فاتك خير يا أبو حمد، فلم نر من القوم أذى، بل احتفلوا بالجميع، ووجوههم مستبشرة ودعوهم للقدوم غداً ثم الذي يليه فطعام الباشا كثير. ثم أردف حريقي قائلاً لكنه رديء، فلم نرى أو نشم الطبيخ بل طعام أكثره جاف مُصبر، إدامه زيت "محزر" كريه فلا لحم ولا حنطة، بل حبوب داكنة مثل دخن اليمن أو ذرة الهند أو عويجة الحبشة، مخمورة في

الماء طويلا ثم خلطت مع البصل والثوم، ودقت في نجر ضخم يقف عليه رجلان بخشب غليظ، وعملت منها لقم مكورة سكب عليها اللبن، ولديهم صناديق حديد يوجد بها ما يقولون أنه لحم القاورما المالح بشدة، وله رائحة الفطيس فعافته أنفسنا، ولا نظن الباشا يأكل منه، فقال الجد أبعد هذا تريدوني أن أصحبكم في الغد، لا والله قرصان جافة أغمسها في قليل من الماء أو الحليب خير من طبيخ العدو، ولا أقول إلا حمداً لله على سلامتكم.